



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور بالجللفة



قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات والفنون

الشعر الديني في الأدب الجزائري

نماذج مخصوصة من شعر محمد العيد آل خليفة

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها
تخصص: أدب حديث ومعاصر

إشراف الدكتور:

يعقوب محمد

إعداد الطالبتين:

– سلت امباركة

– كعناف زينب

السنة الجامعية :

(2015/2014)

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور بالجلفة

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات والفنون

الشعر الديني في الأدب الجزائري

نماذج مخصوصة من شعر محمد العيد آل خليفة

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها
تخصص :. أدب حديث ومعاصر

أعضاء لجنة المناقشة :

د/ شعنان الشيخ.....رئيسا
د/يعقوب محمد.....مشرفا و مقورا
د/لبق محمد.....عضوا ممتحنا

السنة الجامعية :
(2015/2014)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر و تقدير

يقول الله تعالى: << و لئن شكرتم لأزيدنكم >>

و يقول الرسول ﷺ: << لا يشكر الله من لا يشكر الناس >>

بعد حمد الله والثناء عليه، والصلّاة على النبي وعلى آله وسلّم

نتقدّم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الأستاذ "يعقوب محمد"

كما نشكر كل من مدّ لنا يد المساعدة في إنجاز هذا البحث

والله الحمد أولاً وأخيراً

إهداء

إلى كل من سهر على خدمة اللغة العربية والحفاظ عليها

إلى كل من سهر على إحياء التراث الأدبي الجزائري

إليكم جميعاً هذا البحث المتواضع



平江府志

مقدمة:

إنّ الشّعْر الجزائري أصيل بأغراضه وخصائصه ،ولغته وأسلوبه ،وموسيقاه وقوافيه ،وعريق ينبع من تراثنا العربي الأصيل ،ولا ريب في غزارة إنتاج أغراضه من هجاء ووصف ومدح...وشعر ديني ،هذا الأخير الذي لعب دورا في الحياة الأدبية والروحية على السواء ،كما لعب الدين دورا هاما في حياة الشعب الوطنية والسياسية والاجتماعية ،فكان تأثيره قويا في الشعر منذ القديم ، وأردنا بذلك أن يكون موضوع بحثنا هذا :((الشعر الديني في الأدب الجزائري))،وهذا لرغبتنا الشديدة في دراسته دون غيره من المواضيع .

اتبعنا في هذا البحث المنهج الوصفي والتحليلي والتاريخي ،ولكن لا أحد ينكر قصور المنهج الواحد عن الإلمام الكامل بجوانب البحث لذلك ارتأينا أن نكامل بين المناهج

كما شغلنا بالإجابة عن الإشكاليات التالية :

*ما المقصود بالشعر الديني؟

*ماهي العوامل والأسباب التي أدت إلى ظهوره في الجزائر؟

*ما هي أهم تياراته (أغراضه)؟ وما هي أهم موضوعاته ؟

*بما تميز هذا اللون من الشعر؟

*ما هي العوامل التي جعلت هذا الغرض يظهر في شعر "محمد العيد" ؟

وللإجابة قمنا بتقسيم بحثنا إلى مدخل وفصلين ،تناولنا في المدخل لمحة عن الشعر الديني في الآداب الإنسانية ،وفي الفصل الأول تطرقنا إلى الشّعْر الديني في الأدب الجزائري من خلال تحديد مفهومه والعوامل المساعدة على ظهوره ،أما بالنسبة للفصل الثاني فقد خصّصناه لنماذج شعرية دينية لـ"محمد العيد آل خليفة" بعد الحديث عن هذا الشاعر .

يجدر بنا الإشارة إلى بعض العوائق التي اعترضت البحث ومنها نقص المراجع ،وكل ما وجدناه لا يتعدى بعض النتف المتفرقة بين الكتب ،أضف إلى ذلك عامل الزمن الذي كان يطاردنا باستمرار .

وقد اعتمدنا على جملة من المصادر والمراجع، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

*الشعر الديني الجزائري الحديث للدكتور "عبد الله الركيبي"
*ديوان "محمد العيد آل خليفة"

*فصول في النقد الأدبي الحديث للدكتور "محمد مصايف"
*الشعر الجزائري للدكتور "صالح خرفي"

توخينا في دراستنا الجديدة ما أمكننا من البحث والتقصي للمعلومة، فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا.

والله من وراء كل قصد

المقدمة

المدخل : الشعر الديني في الآداب الإنسانية

الشعر الديني في الآداب الإنسانية:

احتل الشعر الديني، أو الاتجاه الديني في الشعر على مر العصور مكانة مرموقة بين فنون الشعر المختلفة، واتجاهاته المتعددة، بدءاً بالآداب اليونانية القديمة، ومروراً بما تلاها من آداب خاصة في مجال الشعر حتى عصرنا الحاضر.

ولعل هناك أسباباً جوهرية، كفلت لهذا النوع من الشعر الشيوع والبقاء وعلو المكانة، ومن هذه الأسباب:

أولاً: نزعة الأمم والشعوب الفطرية إلى التدين، باعتبار الدين أمراً ضرورياً وهاماً لتنظيم حياة الناس، وتنظيم علاقاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ببعضهم، ولأن عدم الانتماء لدين ما مدعاة للفوضى السياسية والاقتصادية والخلفية، ومن هنا كان الاهتمام بالجانب الروحي، وتصوير المعتقدات والأشياء المقدسة في الأعمال الأدبية، وخاصة الشعر منها أمراً حتمياً ولازماً، باعتبار الجانب الروحي أساساً للحياة، ولأن وحدة الاعتقاد عامل كبير في وحدة الأمة وتماسكها وسعيها إلى ما تتطلع إليه من حضارة وسيادة.

ثانياً: توافر عنصر الصدق الشعوري في الشعر الديني، فالبيت أو الأبيات التي يطلقها الشاعر معبراً بها عن كامن معتقده، وعن صفاء روحه ونقاء سريره، وعن إحساسه العميق بشيء ما تتوحد فيه المشاعر وتدين له العقول والقلوب، والمعتقد تلمي فيه بوضوح الصدق الشعوري، فالشاعر لا يحتاج هنا إلى أن يجهد نفسه معاشتها وفي محاولة التأثير بها ونقلها إلينا، وهذا الشعر الديني متعته موصولة لصلته بما تؤمن به الجماعة أياً كان هذا الإيمان وأياً كانت النحلة التي تنتحلها الجماعة، فإن هذا الشعر لا يقف عند حدود الآذان ولكنه ينفذ منها إلى القلوب والأرواح فتجد فيه اللذة والسلوى. ولذلك نهض الشعر الملحمي والشعر المسرحي عند الأمة اليونانية في تاريخها القديم على أساس معتقداتها، وإن كانت هذه المعتقدات خرافية، وأساطير لا يرضى عنها الفكر الإسلامي السليم.

وربما كانت المسرحيات الشعرية الدينية قبل اليونانيين في آداب من سبقوهم واليونانيون عملوا على تطويرها، ومن هنا غلب الظن على أستاذنا الدكتور "بدوي طبانة" أن المسرحية اليونانية كانت مدينة لتمثيلات مقدسة، كان يقوم بها رجال الدين الممثلون في مصر القديمة، كانت أغلب مسرحيات (أسخيلوس) -وهو من أكبر شعراء المأساة اليونانية

القديمة-معتمدة على أساطير ومعتقدات قومه الدينية (كانت تدور كلها حول موضوعات دينية تعتمد على الأساطير ،ولذلك ظهر فيها بوضوح إيمانه المطلق بالآلهة)¹
 وقد استمر الغناء الديني عند العرب في الجاهلية ،وكان يحتل مكانة رفيعة بين أنواع الغناء عندهم ،فقد كان لهم في جاهليتهم مناسك وشعائر حيث أنهم يقدسون الكعبة ويحجون إليها ،كما كانت لهم أصنام وأوثان في أماكن أخرى يقدسونها ويسجدون لها ،وللعرب في الجاهلية طواف وتلبيات مختلفة ،يتكون بعضها من جمل قصيرة ذات أجزاء موسيقية تصل موسيقاها أحيانا إلى درجة الوزن الشعري في الأبحر المجزوءة.²
 في رسالة الغفران يذكر أبو العلاء المعري أنواعا للتلبية عند عرب الجاهلية فمنها ما جاء مسجوعا بلا وزن كما في قولهم :

لبيك ربنا لبيك والخير كله بيدك

ومنها ما جاء على وزن منهوك الرجز والمنسرح ،فمن الرجز قولهم :

لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

إلا شريك هو لك تملكه وما ملك

أبو بنات بفدك³

ومن المنسرح قولهم :

لبيك رب همدان من شاحط ومن دان

جنناك نبغي الإحسان بكل حرف مذعان⁴

نظري إليك الفطيان نأمل فضل الغفران

ومنها ما جاء على وزن مشطور السريع والرجز ، فمن مشطور السريع تلبية همدان :

لبيك مع كل قبيل لبوك همدان أبناء الملوك تدعوك

قد تركوا أصنامهم وانتابوك فاسمع دعاء في جميع الأملاك⁵

¹- بدوي طبانة :النقد الأدبي عند اليونان ،المطبعة الفنية الحديثة،ط:2.ص:61-82

²- ناصر الدين الأسد :القيان والغناء في العصر الجاهلي،ط:2.ص:144-145

³- بفدك :قربة بالحجاز

⁴- الحرف :الناقة الضامرة الصلبة

⁵- الأملاك :اسم جمع يعني الملوك ،وقيل الأملاك ،قوم من العرب من حمير

ففي الغناء الديني، الذي كانوا ينشدونه أفرادا وجماعات، وفي التلبيات السابقة الذكر دليل على وجود النزعة الدينية أو الاتجاه الديني في الشعر عند الجاهليين¹ وإذا عبرنا - تاريخيا- إلى العصر الإسلامي لتتبين مكانة الشعر الديني في تاريخ المسلمين فإننا سنقف أمام حشد شعري، ينبض بروح الإسلام ويتحدث بلسانه، يتبنى أفكاره ومعانيه، وينهج أسلوبه في الحديث عن الحياة وشؤونها المختلفة، عن الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم، عن الدعوة التي جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، عن آمال المسلمين وآلامهم، عن كل صغيرة وكبيرة في حياة المسلمين اليومية الجديدة ففي هذه الفترة كان شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم كـ"حسان" و"عبد الله بن رواجه" و"كعب بن مالك" وغيرهم من الشعراء المسلمين، قد قصر شعرهم على الدفاع عن الدين الجديد وبيان أهداف الدعوة الإسلامية ومزاياها، والدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

كما وصف الشعراء المسلمون معارك الإسلام الفاصلة، ورثوا شهداء المسلمين وأشادوا بالفتوح الإسلامية، كما كان شعرهم عاملا قويا في بث روح الحماس في نفوس المجاهدين²، وقد نظموا قصائد يمدحون فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ويشيدون بفضائل الإسلام ومن هنا نستطيع القول أن الشعر الديني عند العرب بدأ مع المدائح النبوية وفي القرآن الكريم نجد كثيرا من الآيات في مديح الله جل جلاله والاعتراف بفضله على المخلوقات وقوته، لذلك سار الشعراء في تقديس الله لما رأوه في سر خلقه في الطبيعة، لقد امتدح الشعراء الأنبياء كلهم قبل الإسلام، لكن ذلك ورد في مقطوعات أو ثنايا الأشعار، ولم يتطور مثلما تطور الشعر في مدح الرسول الكريم خاتم الأنبياء وفي الثناء على الرسالة، وقد ادمج الشعراء تمجيد الرسالة الإسلامية بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم³ وكان الشعراء المخضرمون الذين آمنوا قد مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأشادوا برسالاته، فمنهم "النابغة الجعدي" الذي نظم قصيدة طويلة في مدح المصطفى، وأما الأعشى

¹ - المعري: بحث التلبية في رسالة الغفران، تحقيق: عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ط: 5، ص: 534-

537

² - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، ط: 3، ص: 373-374

³ - سامي الدهان: المديح، دار المعارف، القاهرة، ط: 2-1968، ص: 73-

الذي كان مترددا ،مدح هو أيضا الرسول صلى الله عليه وسلم بقصيدته الدالية يريد بها وجه النبي صلى الله عليه وسلم ،الذي يقول فيها:

نبي يرى ما لا ترون وذكره
أغار لعمرى في البلاد وأنجا
له صدقات ما تغب ونائل
وليس غطاء اليوم مانعه غدا

بدا من خلال هذه القصيدة أن "الأعشى" بعيدا عن فهم الدين الإسلامي ومبادئه ،فاستخدم في مدحه الأدوات نفسها التي ألفها العرب في الجاهلية ،إذ لم يفرق بين الزعيم الديني ورئيس القبيلة.¹

ولعل أشهر قصيدة نظمت في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت هي "بانة سعاد" لـ"كعب بن زهير وقد بدأها بالنسيب الخالص ثم وصف ناقته وبعدها انتقل إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.²

لقد كان لظهور الإسلام حدثا عظيما في حياة المسلمين ،كان له الأثر الواضح في تغيير منحنى التفكير والتعبير عندهم ،كما هو الحال في سائر وجوه الحياة الأخرى ولذلك كان من الشعر ما برزت فيه الروح الإسلامية .وإلى جانب الشعر الديني الذي يدعو إلى الدين الجديد ويشيد بقيمه ومثله العليا ،ويتصدى لأعداء الدعوة الإسلامية نجد أغراضا أخرى كالغزل والمديح والفخر ،وقد أصاب هذه الأغراض شيء من التأثير بالقيم الجديدة التي أفاءها الإسلام على نفوس الشعراء ،فالغزل مال إلى أن يكون عفيفا بعيدا عن الجسد ،وكشف العورات ،والتصريح بأسماء النساء...³ .والمديح لم يعد كاذبا بل ابتعد الشعراء عن المبالغة المفرطة وعدلوا عن نعت الممدوح بالإسراف في الطعام والشراب وكثرة القتل والذهب.... .والفخر لم يعد بالأحساب والأنساب والقدرة على السلب والنهب والقهر...بل صار بسابقة القبيلة في الإسلام وما قدمته من دمائها وأموالها لمعارك الإسلام ،بالإضافة إلى الشعراء الذين نحو هذا المنحنى الإسلامي برزت ظاهرة الزهد بوضوح وكان لها شعراء وقفوا شعرهم على هذا الغرض ،فكانت قصائدهم الزاهدة تفيض بمعاني الخوف من الله والتحسب لليوم الآخر والطمع فيما أعده الله للمتقين في الجنة والدعوة إلى

¹ -سامي الدهان،المرجع السابق.ص:73

² - عبد العزيز عتيق :الأدب العربي في الأندلس ،دار النهضة،بيروت،1976. ص:220

³ - شوقي ضيف :تاريخ الأدب العربي ،العصر الإسلامي ،دار المعارف،ط:3.ص:372-373

مكارم الأخلاق ونبذ القبيح منها وقد اشتهر من شعراء الزهد في هذا العصر (عصر بني أمية) "عروة بن أذينة" و"عبد الله بن عبد الأعلى" و"أبو الأسود الدؤلي" و"سابق البربري"، هؤلاء الشعراء قصروا شعرهم على شعر الزهد، ولكن لم يكن الزهد مقصورا عليهم بل طرقة شعراء آخرون، ولعل من الطريف أننا نجد بعض الرجاز مثل "أبي النجم العجلي" و"العجاج" يبدوون أراجيزهم بالحمد لله والثناء عليه وكثيرا ما تتحول الأرجوزة عند ثانيهما إلى موعظة خالصة، وتلقانا عند بعض الشعراء أدعية وابتهالات لله مثل قول "ذي الرمة" يناجي ربه قبل موته :

يا رب قد أشرفت نفسي وقد علمت علما يقينا... لقد أحصيت آثاري

يا مخرج الروح من جسمي إذا احتضرت وفارج الكرب... زحزحني عن النار¹

ويجب ألا ننسى - هنا - أن الشعر السياسي الذي ازدهر في عصر بني أمية كان في حقيقته شعرا دينيا، لأنه كان المعبر عن آراء الأحزاب السياسية، وهي في حقيقتها أحزاب دينية. كلها تنتسب إلى الدين ومبادئها هي مبادئ الدين، وأن الأحزاب الأخرى أحزاب خارجة عن الدين، يقال ذلك في شعر الأنصار وفي شعر الخوارج وفي أشعار الشيعة.² في العصر العباسي استمرت موجة الزهد، وكان من أبرز شعرائه "أبو العتاهية"، الذي طرق باب الوعظ والتزهيد في الدنيا لمعارضته معاصريه ممن انغمسوا في ملذات الحياة والمجون والزندقة وهذا النوع من الشعر الوعظي أدى إلى ظهور شعر ينتقد الأوضاع الاجتماعية ويدعو إلى الإصلاح. هذه الأوضاع المتردية ساعد على ظهورها فساد الحكم في ذلك الوقت. وكانت دواوين فحول الشعراء في العصر العباسي من أمثال "ابن معتر" و"السنوبري" و"ابن الرومي" لا تخلو من أبيات في الزهد، يقول "ابن الرومي" في قصيدة يرسم فيها صورة العابد الزاهد:

بات يدعو الواحد الصمد في ظلام الليل منفردا

في حشاه من مخافته حركات... تلذع الكبدا

كلما مر الوعد به سحر من العين فاطرد

قائل يا منتهى أملِي نجني... مما أخاف... غدا

¹ - المرجع السابق. ص: 173-174

² - المرجع نفسه. ص: 174-175

وخطيئاتي التي سلفت
ويح عين ساء ما نظرت
لست أحصي بعضها عددا
ويح قلبي ساء ما اعتقدا¹

وأكثر شعر "أبي العتاهية" إنما هو في الزهد، وكبح جماح النفس وشهواتها ومن ذلك قوله :

قطعت منك حبائل الآمال
ويئست أن أبقى لشيء نلت
فوجدت برد اليأس بين جوانحي
ولئن يئست لرب برقة خلب
ما كان أشام إذ رجأوك قاتلي
فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي
ويقول -أيضا- في هذا الباب :

ألا إنما الدنيا متاع غرور
كأني بيوم ما أخذت تأهبا
كفى عبرة أن الحوادث لم تزل
خليلي كم من ميت قد حضرته
و من لم يزره السن ما عاش غيرة
ودار صعود مرة وحدور
له في رواحي -عاجلا-....
تصير أهل الملك قبور
ولكنني لم أنتفع بحضور
فذاك الذي لا يستنير بنور²

ففي النماذج السابقة وصورة واضحة، ودعوة صريحة إلى الزهد في متاع الدنيا الزائل، وزخارفها الفانية، والرجوع إلى الله والتوبة إليه من فرط ما جنته النفس الأمارة بالسوء، وهي نماذج تبين لنا أي مدى تغلغت نزعة الزهد في نفوس الشعراء في هذا العصر الذي يمتلئ بالتناقضات و المغريات .

وقد امتدت نزعة الزهد إلى شعراء الأندلس، الذين لم يتركوا غرضا من الأغراض الشعرية التي ظهرت في المشرق إلا وطرقوه وتفننوا في موضوعاته، ولكنهم فاقوا في غرض الزهد من حيث غزارته وتوليد معانيه ورسم صورته³.

¹ - ابن الرومي :الديوان ،تحقيق :حسين نصار ،دار الكتب،ط:1-1974.ج.5.ص:776-777

² - أبو العتاهية :الديوان ،دار بيروت،1964.ص:325

³ - الأدب العربي في الأندلس ،دار النهضة ،بيروت،1976.ص:220

كان شعر الزهد يشبه أن يكون رد فعل لانغماس الناس في شهوات الدنيا وحرصهم على لذتها العاجلة وصراعهم على الدنيا الفانية. فنزعة الزهد لدى المسلمين هي في أصلها قيمة من قيم الإسلام الخاصة لكن بعد الفتوحات الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من الشعوب، تسربت إلى الزهد الإسلامي بعض من الأديان الأخرى، ولا سيما زهد المسيحية التي كانت منتشرة عند السريان في بلاد الشام وشمال العراق وأقباط مصر.

وقد أدى تطور الزهد إلى ظهور التصوف، وهو أسمى من الزهد. ويتصل بحب الله، الزهد والتصوف من الأمور المتلازمة في غالب الأحوال بعث على وجودها في المشرق الترف البالغ والتحلل والانسكاب على الملذات، وتطور بتطور المجتمع الإسلامي بعد احتكاك المسلمين بغيرهم من شعوب الأمم الأخرى.¹

فالتصوف في بدء أمره كان مقصوراً على الحياة القائمة على الاعتزال والتأمل ثم أصبح رويداً رويداً حركة منظمة ومدرسة يتخرج فيها أربابها لها قواعدها ورسومها، يقول "ابن خلدون": ((هذا العلم من العلوم الشرعية الحائثة في الملة وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والزهد يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق بالخلوة والعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني الهجري وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة)).²

يظهر أن الفرق ما بين الزهد والتصوف هو الفرق ما بين الاعتدال والمبالغة، فالزهد دعوة إلى ترك الكماليات، والأخذ بما هو ضروري لا غير، أما التصوف فإنه مبالغة في الصوم الدائم والجوع والحرمان³، فالشعر الصوفي نوع من الشعر يكون إلهياً محضاً، تستخدم فيه المادة الشعرية للرمز عن الحقائق وهو شعر مؤول، لا يقصد ظاهرة وإنما له محامل يحمل عليه وتليق به.⁴

¹ - إبراهيم علي أبو خشب: تاريخ الأدب العربي في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970، ص: 164.

² - ابن خلدون: المقدمة، ص: 398.

³ - إبراهيم علي أبو خشب: تاريخ الأدب العربي في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970، ص: 164.

⁴ - المرجع السابق، ص: 226.

ويرتكز التصوف على عنصرين أساسيين أولهما العنصر العاطفي وهو النزعة إلى الحب التي تتجلى في العناصر الغزلية عند الشعراء، أما الثاني فهو العنصر الفكري الممثل في عفة النفس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((من أحب فعم فكم ومات، مات شهيدا)) والاستشهاد في سبيل الحب لا يكون إلا بالعفة والكتمان وهذا هو العنصر الأخلاقي في التصوف عند العرب (حب المرأة، الإيمان بالله والالتزام بالعفة) هذا هو التصوف العربي الخالص، لكن في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، تحول إلى شذوذ فكري عندما اختلط العرب بالأجانب فأضافوا إليه رموزا وأوهاما وأساطير، ذهبت به إلى المبالغة. ولكن لا بد من القول أن التصوف نشأ من داخل الإسلام نفسه في مناهجه ومفاهيمه التي يوجد لها نصوص عديدة في القرآن الكريم والسنة.¹

¹ - أسعد السامرائي: التصوف، منشؤه ومصطلحاته، دار النفائس، بيروت، 1978، ص: 44.



الشعر الديني في الأدب الجزائري

أ. مفهوم الشعر الديني وعوامل ظهوره في

الأدب الجزائري

1/ مفهوم الشعر الديني

2/ العوامل المساعدة على ظهوره في الجزائر

ب. تيارات الشعر الديني الجزائري

1/ الشعر الديني الصوفي

1-1/ المدائح والتوسلات

2/ الشعر الإصلاحية

1- مفهوم الشعر الديني وظهوره في الأدب الجزائري

1/ مفهوم الشعر الديني :

هو ذلك الشعر الذي تنهض دعائمه على أسس إسلامية ويقتبس معانيه ومضموناته من روح الإسلام ويشيع فضائله ويوقظ الوعي في نفوس المسلمين ،وينبه إلى الأخطار المحدقة بهم ويشيد بالقيم الإسلامية ويبين أثرها البعيدة في بناء مجتمع إسلامي سليم يدين بالوحدانية لله ويعتصم بحبه ويحتكم في كل أمر إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،على أن هذا المفهوم الواسع للشعر لا يمنعنا من القول :بأن شعائر الإسلام المختلفة كالصلاة والصيام والحج قد استأثرت بنصيب وافر من الشعر الديني عبر العصور المختلفة لحياتنا الأدبية ويتجلى أثر هذه المعاني ورسوخها في أعماق النفوس .

إن الشعر الديني هو كل شعر اتضحت فيه العاطفة الدينية الصادقة ،ووسمته المعاني القرآنية وظهر عليه تصور الكون والحياة والأشخاص من خلال الإسلام ومثله العليا . إن الأدب الإسلامي بوجه عام والشعر الديني بوجه خاص لم يلق العناية التي لقيتها الأغراض الأخرى ،ولم يلتفت إليه إلا القلة من الدارسين ،وكانت نظراتهم عابرة لا تتكافأ مع مكانة هذا الشعر في ديوان الشعر العربي ،ولا تنهض إلى مستوى منزلته في حياة المسلمين ،يقول "نجيب الكيلاني" : ((إن الفن الإسلامي عامة والأدب الإسلامي خاصة وتعريفهما في ظل العقيدة الدينية ،ودراستهما على ضوءها لم يحظ بما لو أهل له من تمحيص ودراسة)) ،والشعر الديني قد أدى رسالته الخيرة خلال أربعة عشر قرنا في تصوير مشاعر القلوب المؤمنة ،وإرواء عواطف النفوس المتدينة ،والهباب حماس الجماهير المسلمة وحشد طاقات الأمة الإسلامية للوقوف في وجه الغزاة من صليبيين وتتار وتعبيتها لدحر أعداء الإسلام من زنادقة وملحدين ،ويرجع إهمال الأدب الإسلامي وعدم العناية بدراسة اتجاهاته الإسلامية إلى طائفة من الأسباب وأهمها:

1- ما أشاعه أوائل المؤرخين لأدبنا العربي - وأغلبهم من المستشرقين وأتباعهم - من أن أثر الإسلام في الشعر كان ضعيفا باهتا ،وأن الإسلام أضعف الشعر وأخمله وحط من شأنه ،فلم يكن للإسلام ذلك الأثر البعيد في الشعر مما يوجب علينا عدم العناية بالشعر الديني ،وأنه لا يستحق الدراسة والتلقيب¹ .

¹ -الموقع الإلكتروني : WWW.ISLAM.WEB.NET

2- ومن هذه الأسباب أن مصادر الأدب العربي وموسوعاته الكبرى كالأغاني والعقد الفريد والجمهرة ودواوين الحماسة والمفضليات والأصمعيات وغيرها من مجموعات الشعر العربي ومختاراته قد انصرفت إلى العناية بأغراض الشعر التقليدية وجمعها واختيارها فلم تكن هذه الموسوعات مصادر للشعر الديني مع أنها قد تضم شعرا دينيا، ولكنه قليل من كثير، وغيبض من فيض.

3- وثالث الأسباب أن كثيرا من الشعر الديني لم يقله شعراء محترفون مشهورون، وإنما صدر عن شعراء مقلين قالوه تعبيراً عن خلجات نفوسهم وتصويراً لمشاعرهم المؤمنة، ولم يقولوا معه غيره فنسيهم مؤرخوا الأدب ورواته، ولم يذكرها مع الشعراء التقليديين.

4- ويضاف إلى هذه الأسباب الثلاثة عدم جمع الشعر الديني وترتيبه، فقد بقي مبعثراً في صفحات الكتب المتفرقة، ولم يحظ بجمع أو ترتيب، ولم يجد من التحقيق والتقيب العناية الكافية، بل ظل مختلطاً بأغراض أخرى من أغراض الشعر في ثنايا الكتب، ولذلك لم نجد ديواناً أو دواوين تضم الشعر الديني الملتزم، ولو أتيح لهذا الشعر أن يجمع ويحقق كما جمع غيره، وأن يوضع بين يدي الدارسين لوجدوا فيه من عناصر الأصالة وصدق العواطف وحيوية المشاعر ما يغريهم بدراسته، ويدفعهم إلى تبيانه وتوضيحه للأجيال.

لذا يجب على الدارسين والباحثين أن يعطوا العناية والدراسة ما هو جدير به، وسيكون لهذا الأدب - بعد دراسته وتوضيحه - مورداً عذبا ينهل منه أبناء الأمة الإسلامية فيثير حماسهم، ويقوي عزائمهم، ويغذي عقولهم بما فيه من مثل عليا وأخلاق حميدة وتضحيات فذة، صورها الأدباء في أروع صورة وأجملها. ولعل شباب الإسلام يجد في أدبه الإسلامي ما يصرفه عن ذلك الأدب الفاجر المكشوف، والذي يثير الغرائز، ويهدم المبادئ ويسم الأفعال ويحطم صروح الأخلاق الفاضلة¹.

2/العوامل المساعدة على ظهوره في الجزائر:

إن الفترة التي سبقت الاحتلال وهي الفترة التي حكم فيها الأتراك الجزائر طيلة ثلاثة قرون تقريبا، تتميز بطابع عام يتمثل في الصلة القوية التي تربط بين الأدب فيها، وبينه في المرحلة التي تلتها بعد الغزو الفرنسي. فالضعف الذي انتاب الثقافة العربية في عهد الأتراك يشبه إلى حد كبير الضعف الذي انتابها بعد الاحتلال، لكننا لا نجد الضعف يستمر

¹ - الموقع السابق.

في البلاد العربية بعد هذا العهد إلا في الجزائر التي نكبت قبل غيرها من البلدان العربية بالاستعمار المباشر، وهذا الغزو الاستعماري تراه قد أضاف ركودا على الحياة الثقافية والأدبية فإنه في نفس الوقت - قد نبه إلى أن الحضارة الجديدة الوافدة تختلف تماما عن فكرها ووسائلها وأهدافها عن الحضارة العربية الإسلامية - وكشف أيضا عن التخلف الذي ران على هذه الحضارة التي استنفذت كل ما لديها من وسائل ومقومات، ووقفت عاجزة أمام هذا الموقف الجديد الذي يملك كل مقومات السيطرة ماديا وفكريا، ومن هنا نشأ ذلك الصراع الطويل بين الحضارتين والذي استمر ما يقارب من قرن وثلاث في الجزائر، ولا شك أن المقاومة في هذه المرحلة اتخذت أشكالا مختلفة من الكفاح المسلح إلى التعبير بالشعر إلى التشبث بالدين، ومن هنا اختلطت هذه العناصر كلها لتعبر عن مفاهيم العصر وعن القيم التي سادت فيه - سياسية وأدبية ودينية - أثناء مقاومة الغزو الاستعماري الفرنسي.¹

وقد لعب الدين دورا كبيرا في السياسة والأدب لأنه كان المحرك الأساسي للكفاح الوطني، وربطاً كان لتلك النزاعات العنصرية الدينية التي صاحبت الغزو الفرنسي أثرها أيضا في نظرة الشاعر للحياة جعلته في كثير من الأحيان ينزع إلى الدين، ويصدر عنه في رؤيته لقضايا عصره، أضف إلى هذا أن فكرة "القومية" بمعناها الحديث لم تكن معروفة لدى الفرد العادي في الجزائر، وهذا ما جعل الفرنسيين يتهمون قادة الثورات بعد ذلك بأنهم "عنصريون متدينون"، وكان هذا الاعتقاد - عندهم - هو سبب الصراع الطويل بين الفرنسيين والجزائريين، الأمر الذي يوضح الاهتمام الواسع من الدارسين الفرنسيين بالبحث عن عامل الدين في تحريكه للثورات، وعن الخلفية الدينية التي سيطرت على الفكرة والسياسة التي أدت إلى الثورات المتعددة ضد الاحتلال وخاصة أن معظم قادة هذه الثورات ينتمي إلى الطرق الصوفية ابتداء من "الأمير عبد القادر" الذي ينتمي إلى الطريقة الرحمانية.

وقد صاحب الغزو من أول ما يدل على نية الغزاة لا في القضاء على الدين فحسب بل ما ظهر من سياسة إلى الدمج والقضاء على التراث القومي والسيادة الوطنية.²

¹ - عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط:1، 2011، ج:1، ص:15-16.

² - المرجع نفسه، ص:17-18-19.

وكان الرد على ذلك هو الالتجاء إلى الثورات والتشبث بالأرض وبالإسلام، فالأرض كانت تمثل الدفاع عن الوطن الذي اغتصب وعن الكيان الوطني، أما الإسلام فكان هو العقيدة الروحية التي تمثل إحدى الدعائم الأساسية للشخصية القومية الجزائرية، مثل اللغة وغيرها من المقومات الأخرى التي تحدد مفهوم هذه الشخصية، ومن هنا كانت الدعوة إلى الجهاد باسم الإسلام أو الكفاح باسم الوطن.

ظهر هناك لون من الشعر انتشر بشكل كبير في البيئة الأدبية بالجزائر، ونعني به الشعر الديني الذي ساعدت عوامل ومؤثرات على انتشاره بين أوساط المتأدبين. تمثل الثورة الشعبية التي قامت عام 1871 بقيادة "المقراني" آخر ثورة اتسعت أفاقها لتشمل جميع الطبقات تقريبا. وقد لعب الدين فيها دورا كبيرا، حتى يمكن القول بأنه العامل الهام في تحريك هذه الثورة إلى جانب الشعور الوطني الذي أثاره الاضطهاد المسلط على الشعب طوال الفترة السابقة، ومثلما علل الباحثون الفرنسيون الثورات السابقة بعامل التعصب الديني فإنهم في هذه الثورة أيضا أعطوا لهذا العامل الأهمية الأولى، فهم يرون أن الحركة التي تدفع الجماهير إلى مثل هذه الثورات هي دائما العاطفة الدينية وحدها.¹ إن الدين وحده لا يمكن أن يكون السبب الوحيد لهذه الثورات، لأن الشعوب لا تتحرك أو تتور لسبب واحد، وإنما الذي يدفع الناس إلى الثورة عوامل كثيرة تتعاون مع الدين وتتفاعل كلها لتحرك السخط في نفوس الجماهير فتثور على الواقع وتحاول تغييره ولكن يبقى الدين محركا قويا، له السيادة على هذه الجماهير ولذا كانت روح العصر قد غلب عليها الدين.

إن الشاعر كان حين يلوذ بالدين في هذه المرحلة أو السابقة عليها كان ذلك للتنفيس عما يحسه من ظلم واستغلال واضطهاد، وإلى جانب أن الدين يمثل العقيدة الراسخة في وجدانه ووجدان الشعب كله، أضف إلى أن الطرق الدينية لعبت دورا هاما في هذه المرحلة، لهذا كله كادت تختفي أغراض الشعر الأخرى لينحصر في الدين ودواعيه فأصبح معظمه في المدائح والتصوف - فصيحاً أو ملحوناً - .

¹ - عبد الله ركيبي، المرجع السابق. ص: 25-26

ومما ساعد على اتجاه الشعر إلى الدين ذلك الاضطهاد الذي تعرض له الإسلام في الجزائر في العصر الحديث، وتلك الروح الصليبية التي صاحبت الغزو الاستعماري، ومصادرة أملاك الطوائف الدينية والمؤسسات الإسلامية والأوقاف، ويتصل بهذا انتهاك الدين ومقدساته، وقد صاحب الجيش الفرنسي جيش من المبشرين كرسوا حياتهم للدعوة المسيحية في الجزائر، ولكي يصل الاضطهاد الديني إلى ذروته عمدت السلطات الفرنسية إلى سيطرتها على كل ما يتصل بالدين من قريب أو بعيد بحيث جعلت منه مؤسسة رسمية خاضعة لنفوذها، بعد أن كانت عقيدة حرة ومؤسسة اجتماعية خيرية، وبذلك أصبحت الطرق الصوفية نفسها خاضعة في مواردها وحياتها المادية والروحية للإدارة الاستعمارية.¹

إن سياسة فرنسا في الجزائر الرامية إلى القضاء على الدين الإسلامي، وطمس الهوية الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، فهذه الملابس والمظاهر كان لها الأثر في اتجاه الشعر إلى الدين سواء ما يتصل بالمذاهب النبوية أو التصوف الخالص، وانعكس في روحه وأسلوبه ولغته أيضا .

لقد كان للتعليم أثره في مفهوم الثقافة وفي صياغة الشعر كما كان للغة أثرها في أساليب الشعراء وطرق البيان، وما كان يمكن للتعليم الفرنسي أن يثمر في بيئة قاومته ورفضته حفاظا على الروح الوطنية وإبقاء على الشخصية القومية، وقد ساعد هذا التعليم بمناهجه وموارده في إضعاف العربية وفي ضعف الشعر، وهنا كان هدفه الدمج.

هناك نوع آخر من التعليم الخاص "بالزوايا" والذي يرجع فيه الفضل في الحفاظ على اللغة العربية وعلومها، وهو تعليم كان يسير على المناهج القديمة التي تعطي الأولوية لعلوم اللسان والدين ولا تعنى بالشعر إلا كاستشهاد على الغرض، ولم يسلم هذا التعليم من مطاردة السلطات الفرنسية فأغلقوا المدارس الأهلية والزوايا، إن التعليم في الزوايا اتجه إلى الزهد "في الكسب" ويمكن أن نضيف نوعا آخر من التعليم لا يختلف عن تعليم الزوايا في مناهجه أو في طرقه وموارده، وأغلبه ينحصر في تعليم القرآن وهو التعليم الشعبي الذي كان منتشرا بالمدن والقرى والبوادي .

¹ - عبد الله ركيبي: المرجع السابق. ص: 26-29-30

لقد راج الشعر إلى حد ما وانتشر قائلوه بين الزوايا والطرق الصوفية وإن كان قد انحصر في الناحية الدينية، فقد وجد الشاعر في الدين باعتباره قوة حفظت للشعب عقيدته، ملاذ الذي يلتجئ إليه، ووجد في التصوف راحتته مع الظلم الذي عم البلاد.¹ ونرى أن الشعر الذي اتجه إلى الدين امتاز الأسلوب في بعض قصائده بالقوة والمتانة ويبدو فيه أثر الثقافة العربية السائدة في هذا الوقت بصورة جلية، أما الشعر الملحون وإن تعددت أغراضه وموضوعاته، فإنه فيما يتصل بالدين كان يتردد أيضا بين الضعف والجودة مثل الشعر الفصيح.

وهكذا فإن الظروف التي سبق القول فيها تضافرت كلها على أن يكون الدين موضوعا للشاعر، كما أن الظروف العامة التي عاشها العالم العربي في هذه الفترة مثل احتلال تونس ومصر ومحاولة عزل الجزائر عن العالم، ساعدت على أن تسود النظرة الدينية في الأدب.

تطورت الحياة الأدبية والفكرية، والثقافة انتشرت وأخذ الأدب يبعث من مرقدده ووجد الشعر في أعمدة الصحف مكانا بارزا واهتماما خاصا، ولكن النظرة الدينية بقيت غالبية إلى حد كبير على الأدب وعلى الحركات والانتفاضات التي وقعت في هذه الفترة منذ بداية القرن.

إن الظروف التي كانت تعيشها الجزائر في ذلك الوقت كان لها صدى في الشعر بحيث عمت فيه نغمة السخط والتشاؤم وكثر الحديث عن الفقراء والدعوة إلى الإحسان إليهم، والرتاء للحالة التي وصلت إليها الجزائر بأسلوب رومانسي حزين ونبرة تعبر عن الحسرة والأسى لهذا الواقع المؤلم، مما ضاعف هذه النغمة أن فكرتي الاندماج أو التجنيس قد انتشرتا بصورة أكثر من الفترة السابقة بالإضافة إلى فكرة التبشير التي كانت تهدف إلى تنصير المسلمين وتمسيحهم، كل هذا أدى إلى أن تظهر الفكرة الإصلاحية لتصارع هذه التيارات الأجنبية وتدافع عن الشخصية القومية وعن الحضارة العربية الإسلامية²، وقد سارت فكرة الإصلاح ببطء في بداية الأمر لأنها اتخذت ميدانها الدعوة إلى التعليم ونشره والوعظ بالمساجد وتكوين الجمعيات الثقافية والدينية وسعى الكثير من

¹- عبد الله الركبي، م.س.ص: 36-37

²- المرجع نفسه.ص: 41-42-44

المصلحين إلى تحرير العقول من الأوهام والخرافات والوقوف ضد الحملات التي تضطهد الدين وتحاربه، ودعوا إلى محاولة التوفيق بين العقل والعلم، وبين الدين والرجوع به إلى العقيدة الصافية .

كما كان للطباعة أثرها في ظهور الصحافة وانتشارها، فقد كان لها دورها كذلك في إحياء التراث القومي، ومما ساعد انتشار الثقافة والعناية بالأدب والشعر تلك النوادي والجمعيات الثقافية والمؤسسات الخيرية والدينية. وبلا شك فإن تعدد أنواع التعليم واختلاف الثقافات ومنابعها انعكس في الشعر وأثر في اتجاهه وفي أساليبه وموضوعاته .

إن رجال الطرق الدينية الذين ظلوا يعيشون في الماضي وفي التراث القديم، لم تمكنهم نظرتهم هذه من أن ينظروا إلى الشعر على أنه فن أدبي يحتاج إلى خلق وإبداع، وظل الشعراء منهم يعيشون في نطاق الدين مثل الفترة السابقة بل استمروا في هذا الاتجاه حتى اليوم ولكن طبقة رجال الإصلاح هي الفئة التي كان لها في نهضة الشعر على وجه العموم حيث تعددت أغراضه، كما تنوعت أساليبه وتعدد مفهومه ولم يصبح محصورا في نطاق ضيق أو يدعو إلى غرض خاص، ومهما يكن كن أمر فإن الشعر الجزائري في هذه الفترة كان تعبيرا عن صدى الأحداث والصراعات الفكرية، كما أن الشعر في المرحلة السابقة عليها عبر عن الفكر الديني الذي كان سائدا فيها لاعتبارات كثيرة وعوامل سياسية واجتماعية وفكرية وأدبية، أما المرحلة الثانية تمتاز بطابع السكون في الحياة الأدبية وفي المرحلة التي تلتها تمتاز بطابع الحركة الدينامية .¹

¹ - عبد الله الركبي، م.س.ص:46-47

II- تيارات الشعر الديني الجزائري

1-1/ الشعر الديني الصوفي :

1-1/ المدائح والتوسلات :

يعتبر المديح النبوي أصدق الأغراض الشعرية في الأدب العربي ،ومن ألوان التعبير عن العواطف الوجدانية الصادقة ،ومن أبواب الأدب العاطفي الصادق الذي يسمو عن المادة ،وهو الذي قيل في النبي صلى الله عليه وسلم حيا وبعد وفاته¹، فمديح النبي الكريم في حياته كان حبا به ،ونصرة لرسالته ،وظلت دوافع المديح النبوي هذه عند الشعراء بعد أن انتقل إلى جوار ربه ،وزيادة على ذلك انتقى الشعراء الأجر والثواب عند الله تعالى ،وطلبوا الرحمة والمغفرة ،وأرادوا أن يقدموا لعصورهم المثل الأعلى للإنسان ليفقدوا به ،فظلت دوافع مديحهم له تختلف عن دوافع المديح لسائر الخلق ،وخلص لهم الصدق وحرارة العاطفة التي يؤججها الإيمان والحب ولا يشوبها الرياء وطلب النوال ،وقد نص على ذلك شعراء المديح النبوي² ،وقد كان لشاعر الرسول صلى الله عليه وسلم "حسان بن ثابت" الفضل في شيوع هذا اللون من الشعر ،فقد دافع عن النبي صلى الله عليه وسلم في مدحه وفي هجاء أعدائه .

وفي عصر الخلفاء بقي المديح في هذا المجال ،ولكنه في عصر الأمويين رجع إلى العصر الجاهلي ،وأخذ الشعراء يستمدون معانيهم من العصبية القبلية بعد أن ظهرت أحزاب سياسية ،ولم تختلف هذه النظرة في شعر المديح عنها في العصر العباسي³ .
تعتبر المدائح النبوية في الشعر الجزائري الحديث جزءا من هذا التراث العربي الإسلامي الذي ظهر في الأدب العربي ،والواقع أن عهد الأتراك ساعد على انتشار المدائح النبوية والتقرب بها إلى الله ،وهو العصر الذي عم فيه الجهل وطغت روح الجمود في الفكر والأدب وانتشرت الخرافات والأوهام وكثرت الصنعة اللفظية والتقليد الأعمى

¹ - التوتنجي محمد :الاتجاهات الشعرية في بلاد الشام في العصر العثماني ،منشورات اتحاد الكتاب العربي ،1993.ص:66

² - محمد محمود سالم :المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي ،دار الفكر المعاصر ،بيروت -لبنان ،دار الفكر ،دمشق ،ط:1، 1996.ص:50

³ - عبد الله ركيبي :الشعر الديني الجزائري الحديث.ص:55-56

للأقدمين ، وكان الانحطاط عاما في الأدب العربي في المشرق أو في المغرب ، ولم يختلف حال الشعر في الجزائر من غيرها من البلدان العربية الأخرى ، فكثير الزهد والتكشف ولاذ الناس بالدين يحتمون به ، ويعيشون في ظله هروبا من المظالم التي سلطت عليهم ، وانتشرت المدائح بالفصحى والعامية ، ووجد من الشعراء من يكتب قصة الرسول صلى الله عليه وسلم كاملة أو ليتحدث عن معجزاته ، أو يصف جماله الظاهر والباطن ، ويشيد بنبوته وأخلاقه ، كما كثر التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالصحابة وبالأولياء في هذا العهد ، خاصة بعد أن أخذت الدول العربية كإسبانيا تشن حملاتها على سواحل الجزائر إلى جانب هذا كثر الحديث عن التشوق إلى الكعبة وإلى المدينة والبقاع المقدسة ، ومزج هذا كله بالشوق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما عن الفترة الاستعمارية التي عرفت سيطرة على الحياة الفكرية والسياسية والثقافية ، ترك المستعمر المجال مفتوحا أمام هذا اللون الشعر ، فأخذ الشعراء يلتفتون إلى "عصر الرسالة" يستنجدون به من هذا الظلم الذي سلط عليهم ، فوجدوا في المدائح الرحاب التي يمكن أن يسكنوا إليها ويطمئنوا فيها وينشدوا تلك القصائد وكأنهم يرثون الحالة التي وصلت إليها البلاد.¹

وهم في مدحهم للنبي صلى الله عليه وسلم إنما يعبرون عن الواقع الذي لا يجدون فيه ما يبعث على التفاؤل فعادوا إلى النبوة يستلهمون منها ويستنجدون بها .

وإذا كانت هذه المطالع التي تبدأ بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وبالحمد لله أو ما شابه ، قد عرفت منذ القديم في الأدب العربي فإنها في العصرين التركي والحديث بالنسبة للشعر الجزائري أصبحت تقليدا متبعا وظاهرة عامة في الشعر الديني وخاصة الذي يقتصر على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته:

ويمكن التفريق بين نوعين من المدائح النبوية في الشعر الجزائري الحديث ، النوع الأول هو ما كان امتدادا للتراث القديم في هذا الموضوع . وهو يرتبط أساسا بالنظرة الصوفية ، أما النوع الثاني فهو الذي اتخذ من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مبدءا للدعوة إلى النهوض واليقظة .

كما يمكن التفريق بين الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته ومعجزاته ، وما يتصل بحياته الروحية والجسدية ، وبين الحديث عن الحقيقة المحمدية ، والنور

¹ - عبد الله الركيبي :م.س.ص:59-60-61

المحمدي وحب هذه الحقيقة ، فالأولى تدخل في مجال المديح لأنها وصف له ولأقواله وأفعاله ، أما الثانية فهي تخص الناحية الميتافيزيقية وتدخل في التصوف الخالص .¹
 ففي قصيدة " يا سائلا عن جمال كان لي وطنا " يبدأها الشاعر "محمد بن سليمان" بمقدمة فيها حديث عن جمال الرسول صلى الله عليه وسلم في أسلوب أشبه ما يكون بالغزل الصوفي :

ياسائلا عن جمال لي وطنا ولم أزل أجتليه وهو ما بظنا
 حركت مني ولو عا كان مستترا ولم أزل أختفيه وهو يعلننا
 لكنها صولة الأقدار قد حكمت وكلنا تحت قهر الحسن قد سكنا

ثم يصفه بأنه عين العيون أو هو في شمائله وأخلاقه مثل شمائل الخمرة المسكرة ، ويربط بين هذا وبين المدينة المنورة² فيتغزل بها :

فأنت عين العين منك قد بسطت أيدي العناية نشرًا فيك مُخترنا
 ولم تزل فيك عينا وهي مكثرة لكنها أوجه للعين منك سنا
 شمائل الحسن أم شمول مطربة قد اسكرت بشذاها الدن والوطن

وبهذا يمهد للحديث عن هذه الشمائل المحمدية التي يتغزل فيها ، ويذكر أنها شمائل تنعش النفس وأنه متعلق بها منذ صغره.

نعم شمائل خير الرسل تنعشا طورًا وتسكرنا، صحواً من بعد فنا
 علقت منذ الصبا روعي بها زماً ولم أزل أرتقي معني بها سكنا
 وهاك منها فنونا للعليل دوا وللعشيق هوى يطوي الطريق لنا
 فنل بها وطراً وادفع بها كدرًا واعددّها مدخراً لشدة وضمني
 غنيمة قد أتت تزدان في حل نعم الوسيلة بالأحباب تجمعا

وبعد هذه المقدمة الطويلة يصل الشاعر إلى الغرض من القصيدة وهو مدح صفات الرسول صلى الله عليه وسلم :

¹ - عبد الله ركيبي: م. ن. ص: 62-63.

² - عبد الله الركيبي: م. س. ص: 68.

قد كان في القوم ربعة إلى طول
جسم أنيق منير أجرد في الصفا
كأنه بانة ماست على كبدي
وجه جميل حكاه البدر في أفق
كتاء تملأ صدرا منها زينها
تزر من الشيب بالأوطان ذكرنا

هذه تعابير صوفية مثل وصف هذا القد بالرشاقة وكأنه عجن من ماء اللطف فالرسول صلى الله عليه وسلم ريع القامة يميل إلى الطول ،ولكنه أنيق فيه صفاء ،لحيته سوداء غزيرة الشعر ،شعره مرجل ،خده أسيل معتدل .¹
وكذلك فإن وصف عيني النبي من الأوصاف التي عرفت في المدائح أو في السير فهو يصفهما بالدعج فيما حور:

دعج العيون التي طرقها حور
هدباء سود الجفون منها توميا
مثل الهلالين فوق العين ألبسها
لله درها كم أسدت لنا مننا
زج الحواجب قد رقت ولا قرنا
حسنا علاها بنور الصدع مقترنا

ولم يكتف الشاعر بوصف أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته ، وإنما أضاف بإيجاز حديثا عن بعض علامات نبوته ،كالخاتم ،والعمامة ،وهي خاصية في قصائد المديح مبالغة في إظهار نبوته:

ختم النبوة فوق الكتف قد برقت
غمامة ظللت وجه الحبيب فلم
بطلم نلت فيه ثروة وهنا
تعثر عليه عيون رامت الوسنا²

والشكل في هذه القصيدة هو الشكل التقليدي حيث البداية بالغزل ثم التلخص إلى وصف الأخلاق ،ثم وصف الجسد وأخيرا التوسل والخاتمة وتبدو عاطفته قوية جارفة في مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم .

إذا كان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم يقصد منه التبرك به والتقرب إلى الله فإن وصف أسمائه والإكثار من ذكرها يندرج في هذا الإطار ،فيه تقليد للسابقين الذين كرسوا منظومات كثيرة في هذا الغرض قصد التبرك بالرسول صلى الله عليه وسلم وبأسمائه

¹ - عبد الله الركبي: المرجع السابق. ص: 64 - 65

² - المرجع نفسه، ص: 67 - 68

كما تبركوا بنظم أسماء الله الحسنى ،ومنظومة الشاعر "عبد الرحمان الديسي" في هذا المعنى تدل على الغرض من إنشائها فهو يذكر بأنه نظمها تقربا للرسول صلى الله عليه وسلم الشفيع ،بيدوها بالحمد ثم الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يبين غرضه من إنشائها: ¹

الحمد لله الكريم أحمده محمد حبيبته وأحمده

ثم يذكر غرضه من ذلك :

وبعد إن غرضي وأربي نظم أساس المصطفى المقرب

فشفعا بجاهه لله لأنه الوجيه عند الله

أرجو بها تيسيري للنجاة مقتنيا دلائل الخيرات

ويأخذ في ذكر أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته يمثل هذا النظم الذي لا نجد فيه روح الشعر ، فليس فيه صور بيانية أو عاطفة قوية ،ولا تعابير جزلة أو معاني جديدة ،فهو يكرر أشياء ليس فيها جديد ، يكرر عشرات الأسماء والأوصاف كقوله :

يا كامل من شأنه التكميل تقي الوجوه إنك الإكليل

وإنك المدثر والمزمل بالدين والإرسال يا ذا الأفضل

إن الربط بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الحديث عن الأماكن المقدسة كان من أشكال القصيدة في هذا الاتجاه ،باعتبار أن الحديث عن مكة ،أو المدينة ،إنما هو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم فمن خلال ذكرها يتخلص الشاعر لمدح الرسول .

وهذه قصيدة للشاعر " حسني بن الأخضر الجداوي " تسير على هذا النسق ، فيها الحديث عن المدينة أو عن مكة ،فهو لا يذكرها بالاسم وإنما يذكرها مكنيا عنها بالروضة .

سقاك الغمام الطل يا روضة الوفا وعاوده من فيضه المتجدد

رجونا جناب الجود وهو محمد أمانى تقضي في الحياة وفي الغد

ويقول الشيخ "الديسي" :

أبارق لاح أن تلك ابتسامات وهذه طيبة أم الثننيات

دار هي العين والدنيا لها جسد وبسوى العين تصلح الذات

والله ما المسجد الأقصى يقاربها ولا الحرام نعم ولا السماوات

¹ - عبد الله الركيبي :المرجع السابق ،ص :70-72

ترهبوا افتخارا بخير الخير قائله كم مدحتني مكن القرآن آيات

تختلف المدائح النبوية في فترة الإصلاح بوجه عام عن المدائح في الفترة السابقة عليها، وإن اتخذت الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعا لها، فإنها تختلف في رؤيتها من حيث أن شاعر الإصلاح لا يقصد التبرك والتقرب إلى الله عن طريق الرسول صلى الله عليه وسلم والإشادة به فحسب، وإنما يهدف إلى استنهاض الهمم وإلى معالجة الواقع الذي ابتعد عما في الإسلام وجوهره، وأصبح الدين بعيدا عن منابعه الصافية، فعمت فيه الخرافات وانتشرت حوله خيوط كثيرة نسجها الجهل والاستعمار، ومن ثمة فإن علاج الواقع عن طريق الدين، يكون بالرجوع إلى سيرة الرسول وجهاده، وإلى أخلاقه¹ قد اتخذ شعراء الإصلاح من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، أو غزواته مناسبة لإلقاء القصائد ونشرها في الصحف أو إلقائها على المنابر، متعرضين مستجدين به من واقع أليم وحاضر مؤلم، يقول "محمد بن منصور العقبي":

أعد ذكر طه مرة بعد مرة عساك بذلك الذكر تحظى بنظرة
وداؤ به قلبا عرته وساوس من البعد عن أرض الأحبة طيبة
ولا تأل جهدا في امتداح محمد أخ الجود والإحسان رب العطية

ويقول الشاعر "أبي اليقظان" (قم يا محمد)

قم يا محمد يا ختام المرسلين وحكيم أهل الأرض طرا أجمعين
وانظر بعينك كيف حال المؤمنين وتدهورت وهون لأسفل سافلين
تجد الأمور تحولت عن حالها والدين في عهد السياسة قد أهين
فالأمة السمعاء ديست ذلة

ومن هذه المقدمة يتضح اتجاه القصيدة من أنه ليس غرض المدح وحده ولكن الاستنهاض. ومعالجة الواقع، ووصف هذا الواقع وكيف تغيرت معه معالم الدين وفروضة، وكيف سادت قيم فاسدة حلت محل قيم الإسلام:²

حل الحرام بلا نصوص تقتضي وبلا مبالاة بخير حاكمين
أما الفروض فقد غدت أضحوكة واستهزأ العاصي بحال المتقين

1 - عبه الله الركيبي: المرجع السابق، ص: 108.

2 - المرجع نفسه ص: 114-115

واستفحل الجهال واشتد البلا وتعاظم الأندال منذ المصلحين

ثم تأخذ القصيدة بعد أن وصفت الحالة العامة في تفصيل هذا التغيير الذي حدث ومس فروض الدين وأثر في المجتمع وقيمه وتقاليده :

الخمير في سوق التجارة رائج أرباحها والناس منها في جنون

أما الدعارة فهي زينة عصرنا أما الخنا فغدا أشعار العالمين

وبعد أن يعدد المساوي يتجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى مولده الشريف يستجد به ، والقصيدة بعد ذلك تضرع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الله لينقذ الإسلام مما ألم به من هذه المحن إلى أن يختمها ويقولها :

هذا هلاك يا محمد زاهر ويتوه في الظلمات في خزي مشين

ويستمر على هذا النسق فيدعو إلى اتحاد المسلمين ، وينتقد أولئك الذين يندفعون وراء التقليد للغرب ، ويستمر بالدواء وهو الرجوع إلى الدين في أسلوب ضعيف :

خليلي لا بذلك ولا بهذا نال الظفر والعز المصونا

ولكن بالرجوع إلى الكتاب الحكيم فلم يزل حبلا متينا

وتطبيق لحال العصر عنه وعن آثار خير المرسلين

على هذا النمط تستمر القصيدة تبين فضل الرسول صلى الله عليه وسلم ومزيته ، وهي تستوحي ماض الإسلام لتستعيز به .

ويتصل بموضوع المدائح تلك القصائد التي قالها أصحابها في التوسل أو الدعاء فهي قصائد اتخذت من الرسول صلى الله عليه وسلم في أغلب الأحيان محورا لها ومدارا لأفكارها ، ومن بينها قصيدة (الوسيلة العظمى) للشاعر "عبد الرحمن الديسي" يقول فيها¹:

وبالمصطفى المختار كن متوسلا فما خاب من بالمصطفى يتوسل

سيدي يا أكرم الرسل ليس لي على أحد إلا عليك المعول

غياثي رحالي واعتمادي وملجئي بجاهك أدركني فحشاك أهمل

وهناك قصيدة بعنوان (يا خير خلق الله) للشاعر "محمد بن سليمان" يقول فيها :

يا خير خلق الله يا كنز الرجا يا خير مبعوث لأكرم ملة

¹ - عبد الله الركيبي: المرجع السابق، 133

كن لي وليا شفيعا من ذلة وارحم ضعفي ،سيدي وحقارتي¹

ثم يقرن التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم يتوسل آخر بالأولياء والملائكة ،والأسماء الحسنى ،وبالقرآن ويختتمها بالصلاة على الرسول :

وبأولياء الله في كل مشهد وبأمة قد خرجت خير أمة

بملائكة الله المهيمن كلها وجميع رسل الله في كل حضرة

كذلك فإن الشاعر "محمد العلمي" يتوسل في قصيدة له بالرسول صلى الله عليه وسلم ويعرض لحياة الجاهلية التي تغيرت بمجيء الإسلام ،مطلعها :

يا شفيع العباد في يوم هول يا رسول الإله فيك اعتصامي²

وهناك قصائد اختصت بالدعاء وحده يتجه فيها أصحابها إلى الابتهاال مثل قصيدة (دعاء جليل لتسيير الرزق والنصر):

يا جابر العظم الكسير وراحم الطفل الصغير ورازق الحيتان

فأتح لنا اللهم لطفا شاملا جما فآمن فتنة الحدثان

وقد التجأ الشاعر إلى الدعاء لأنه في ظل الكفر تحت حكم الاستعمار الكافر :

إني في دار الكفر فأنقذني يا من أجاب يونس في خفى مكان

ثم يخلص إلى الدعاء للمسلمين و"السلطان عبد الحميد" :

واجمع قلوب المسلمين على الهدى وامن بنصرك للرضى السلطان

واعززه يا ذا العز وانصر جيشه نصرا لتظهرهم على الأديان

أما الموضوعات التي تتصل بآل البيت لم يعن بها إلا نادرا بحيث لم نعثر على أكثر من قصيدة واحدة في هذا الموضوع ويبدو أن الشعراء قد اكتفوا بمدح أهل "الطرق الصوفية" ،وحتى القصيدة التي عثرنا عليها وهي منظومة في مدح آل النبي صلى الله عليه وسلم ومطلعها :

هنيئا لنا بالمصطفى وبننتيه فيها له من جد و يا لها من أم

ليس فيها سوى ذكر فاطمة ابنة الرسول في هذا البيت فقط :

بفاطمة الزهراء تحقق عزنا وطابت لنا الأيام يوما على يوم

1 - عبد الله الركبيي :المرجع السابق ،ص :134-136

2 - عبد الله الركبيي :الشعر الديني الجزائري الحديث ،ص :140

ليس فيها حديث عن آل البيت بصورة مفصلة ،إنما هناك حديث عام في أسلوب مباشر يخلو من الصور والتعبير القوي ،ولعل السبب في قلة الإنتاج في هذا الموضوع وعدم المغالاة هو عدم انتشار المذهب الشيعي في الجزائر بالصورة التي انتشر بها في بعض البيئات الأخرى ¹.

وإذا كان الشعراء قد عنوا بالحديث عن الأنبياء والصحابة فقد عنوا أيضا بالمساجد فمدحوها باعتبارها لهؤلاء أو أولئك مقام الأولياء مثل قصيدة " الديسي " في مسجد "ابن أبي داود" ،وهو من رجال الطرق بـ"زواوة" ،يمدح هذا المسجد والقائمين عليه فبدأها بالخطاب إلى رفيقه ويقصد المريد أو الشخص نفسه فيدعوه إلى زيارة هذا المسجد :

يا رفيقي إلى زواوة بادر قرب الوقت إن ترد أن تسافر
يقصد خير مسجد حقه النور تقاعس عنه كل مكابر

أيضا قصيدة للشاعر "حقي السائح" التي قالها في مسجد مطلعها :

هل للمعاني التي يسعى لبغيتها بيت الإله الذي بالرفع قد أمرا لا
سيما مسجد في خير زاوية بها تماسين جرّت نيلها فخرا

إن قيمة هذه القصائد في موضوعها تعبر عن تأثر الشاعر بالدين وما يتصل به من قريب أو بعيد ،أما صياغتها وأسلوبها فهي ضعيفة في هذا كله ،إذ ينقصها حرارة الانفعال فهي أقرب إلى التسجيل منها إلى التعبير والتصوير فصورها عادية تخلو من الجدة والطرافة لاعتمادها على المباشرة دون الإحياء والرمز .

وإذا كان الشعراء قد استفذوا قصائد كثيرة في هذه الموضوعات فقد كرسوا نماذج أخرى كثيرة لمدح الشيوخ الذين ينتسبون في معظمهم لأهل البيت من الأشراف ،فيما يدعون ، خاصة من رجال الطرق الصوفية الذين أسسوا الزوايا والمساجد ،وفتحوا بيوتهم لطلاب العلم وانتشروا في أرجاء البلاد ².

والواقع أن اتجاه الشعراء إلى مدح الأشراف من آل البيت أو الدفاع عنهم قد شاع في هذه الفترة وكذلك مدح الجماعة ،كقصيدة (سلام ورحمة) للشيخ " محمد بن سليمان " في جماعة بالأغواط يقول فيها :

1 - عبد الله ركيبي : م.ن. ص : 148 - 149

2 - عبد الله الركيبي :المرجع السابق. ص : 161- 162

سلام ورحمة وأزكى تحية
سلام على الجمع المعظم قدره
يعم رجال الحب أينما قد حلوا
و أنجا لكم وكل من حقه الشمل
أعني سادات الأغواط أشبال حينا
أولئك حزب الله خصمهم الفصل

وسمة الدين واضحة في هذا المدح، ولكن القصيدة لا تعبر عن إحساس الشاعر بقدر ما تعبر عن أسلوب المجاملة .

تعددت القصائد ونجد بعضها يبدأ بالخطاب المباشر والمدح، أو بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يخلص إلى مدح شيخة، والبعض الآخر يبدأ بحمد الله وشكر نعمته، أما البعض فيبدأ بالغزل على طريقة القدماء في المدائح النبوية لـ"الديسي" في مدح الشيخ "الهامي"، قصائد كثيرة يبدوها أحيانا كثيرة بالغزل مثل قصيدة (المسعودية) التي عبر فيها عن تعلقه بشيخة وأظهر فيها صدق عاطفته اتجاهه، وهي قوية في أسلوبها وصياغتها يقول فيها¹ :

فلازم حماه واتخذة وسيلة
وبادر إليه واغتنم وقته تفتز
وارس سفين القصد هذا هو الجود
ولا تلتفت لحاسد أو لمحسود
غزير المزايا فضله غير مجحود
ملاذ الورى الفياض غوث زمانه

وهناك قصائد أخرى عمدت إلى الأسلوب المباشر في المدح تبدأ بالغرض المقصود وهي الإشادة بالممدوح فيها² :

واسبح على مهل في بحر حضرته
حتى يتغيب على كل الوجود به
واشرب حمياه جهرا غير محتشم
في الأحذية حيث الكل كالعدم
فانقادت الخلق والدنيا له خدمت
بأسرها بين حال الطلوع والرغم
تري قلوب الورى إليه وافدة
في القرب والبعد من علاب ومن عجم
كم أبرأت بالأمس من مرض
أعيا الأطباء بعد اليأس والبرم

وإذا كان الشعراء قد عنوا عناية خاصة " بشيوخ الطرق " فقد عنى بعضهم بالطريقة نفسها، فتحدثوا عنها ودعوا لها وعددوا محاسنها وبينوا أهدافها، ولكن أساليبهم اختلفت في الدعوة لها، فبعض الشعراء كرس منظوماته للحديث عن أهدافها مما جعل شعره أشبه "

1 - عبد الله الركبي: المرجع السابق. ص: 191 - 195

2 - المرجع نفسه. ص: 216

بالمتمون" التي تنظم للتعليم أو للوعظ والإرشاد ، وبعضهم حاول أن يجعل من هذه المنظومات قصائد فيها شيء من الفن ، فقصيدة الشيخ " أحمد الطاهر " في مدح (الطريقة الخلوتية) يبدوها بخطاب المرید يدعوه إلى الدخول فيها واتباع سبيلها :

يا من إذا مسك التحقيق منهجه
انفض ولذا بهداة ساد نازلهم
ويفتنى عن سؤال الغير سالكها
ما نالني من صروف الدهر نازلة
ويبتغي دولة تزهو على الدول
وضيفهم قد ثوى في أكرم النزل
يمر في الخلق والاطمار كحلل
إلا وجاء اكبرق السحب في العجل

يمكن القول بأن مدح هذه الطرق يسير في اتجاه الشعر إلى الدين من مختلف نواحيه سواء في الموضوعات التي تتصل بالدين وجوهره ، أو بالرسول باعتباره حامل لواء هذا الدين والمبشر به ، أو بالشيوخ والأولياء ، أو لطرق التي تمثل منهجهم في المحافظة على الدين الإسلامي¹. وبالجملة فإن الدين كان هو المنبع الذي استقى منه الشعراء قصائدهم في الموضوعات التي سبقت دراستها .

ونجد مدح العلماء والمسلمين ، أو العلماء من رجال الدين الرسميين ، وهو موضوع استغرق العديد من القصائد ، مثل قصيدة "الديسي" التي عبر فيها عن اعترافه بأعمال الممدوح " عبد الحميد بن باديس " يقول فيها :²

إلى عبد الحميد مزيد شوقي
ثم يمدحه بالعلم والعمل من أجله وأن هذا هو الفخر لا فخر بعده
فأحيا العلم ، إن العلم يحيا
بدرس ، من لوجه الله عان
فهذا الفخر لا لهو بدنيا
فان للأغاني وللغواني

وقد مدح الشاعر "عبد السلام السلطاني" الشيخ "البشير الإبراهيمي" أيضا ببعض القصائد باعتباره من رجال الحركة الإصلاحية ، ومنها قصيدة الشاعر "عبد الحميد بن امعيزة" التي مطلعها :

سحليق لك البشري فطيري سرورا
فهذا بشير العلم ألقى لك العصا
وجاري إذا شئت الدراري نورا
فبرى به جارا وسرى مجي

1 - عبد الله الركبي : المرجع السابق . ص : 220-222

2 - المرجع نفسه . ص : 234

وهناك قصيدة الشاعر " أبي اليقظان " في مدح المصلحين يبدؤها مباشرة بالمدح مطلعها :

تراكمت الأكدار في أفق الهنا بها حجبت الشمس المسرة عندنا
فما زلت عضوا مصلحا يابن صالح لإنقاذ شعب من مخالب ضدنا¹

ونشير إلى موضوع وجد فيه الشعراء تعبيراً عن عاطفة الدين ونوازعه، ونعني به شعر الرثاء، وقد شاع هذا الفن في الشعر الجزائري الحديث، فالرثاء بطبيعته يستدعي المعاني الدينية ويخلق للشاعر مناخاً ملائماً، ليعبر فيه عن انفعالاته وعن إيمانه، فالشيخ " عاشور " رثى من مات من أشرف الهامل بقصيدة قوية معبرة عن حزنه :²

الله أكبر ما ليعينك تدمع والقلب يحقق والجوارح تخشع
والهامل الهمال بالخيرات في صدع وعهدي أنه لا يصدع
ورجاله الأشراف جد عويلهم ونساؤهم في صيحة تترفع
والأرض مغبر محياها الذي كنا عهدناه قديماً يلمع
والنخل لا سعف عليه ولا على أشجاره ورق بوقت يطلع
والشيخ فيه كأنه متضعض والعهد عند الحطب لا يتضعض
مهلاً لقد نعت لنا علماءؤه ورجاله الغر الكرام النفع

وبعد أن يصور الطبيعة وكيف تألمت لصوت هؤلاء الأشخاص، وكالعادة في الرثاء، فإن الشاعر يشيد بأخلاق المرثي :

بطل شجاع كالغضنفر خلقه لكن ماء جماله يتتبع

إن قصيدة "الديسي" في رثاء شيخه "الهامل" قد بدأها بالتعبير عن الفاجعة التي فجع بها الدين بموت هذا الشيخ، وأن الطبيعة هي الأخرى قد حزنت وتأثرت لهذا الخطب، يقول :

تضعض ركن الدين وانتلم المجد ومالت جيوش الهم واتصل الوجد
وأظلم جو الأرض شرقاً و غرباً وأوحش من آفاقها الغور والنجد
وفارقنا ذلك السرور ولم يعد هناء ولا منعو بل كدر الورد

¹ - عبد الله الركيبي :المرجع السابق.ص:239

² - عبد الله ركيبي :الشعر الديني الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط:1، 2011، ج:1، ص : 248-

من القصائد ما يبدأ بالتعبير عن الألم والتفجع وذلك بالحديث عن الدموع مثل قصيدة " الديسي " في الشيخ " المختار الهاملي " يقول :¹

عيني جودي بدمعك المدرار وإن وكف الدموع يطفى الأوار

وينتقل إلى رثائه واصفا أخلاقه وتدينه وعبادته، وهي السمة الغالبة على هذه المراثي، والملاحظ أن قصائد رثاء " الشيوخ " من الطرق الصوفية يغلب عليها وصف المرثي بالتدين وبالألفاظ الصوفية، وبالتعبير عن التذلل والخضوع والاعتراف بولايته مثل قصيدة الشيخ " محمد بن سليمان " التي رثى بها الشيخ "قدور بن سليمان" ، يقول :

قدور من شرب البحار في نهل الله خصمه في سابق القدر

ويقول أيضا :

ملائكة العلوى بالوقار مقبلة وجنة الخلد بالقدوم تبتشر
والحور في طرب تبدو ذوائبها لطلعة الحسن من لذاه النظر

فهذا الوصف للمرثي واختفاء الملائكة ولقاءه بالرسول صلى الله عليه وسلم كلها من مميزات المراثي الصوفية، وهناك من القصائد ما يظهر فيها التصوف بوضوح كامل في أسلوبها وتعابيرها وصورها. وهناك قصائد تبدأ بالتفجيع أو الحكمة، أو بالتعبير عن الذهول والدهشة من الخبر رغبة في عدم تصديقه فالشيخ "عدة بن يونس" رثى "العلوي" بقصيدة بدأها بالتعبير عن دهشه مخاطبا الصبح :

رويدك يا صبح هل لك من خبر أتطلع وشمس الهدى على سفر
مات الذي قد كان الله نصرته وكان بين الورى كالغيث

ومن القصائد ما يبدأ بالحكمة والموعظة، لأن مقام الموت يتطلب هذا الأسلوب للعظة والعبرة، كما في قصيدة الشاعر "محمد بن منصور" في رثاء الشيخ "على بن محمد الصغير العقبي" ،مطلعها :²

المرء يبني والزمان يهدم ويظل بأمل والكوارث تفحم
والدهر بحر والأنام سفائن تجري وموج البحر فيها يهجم
والموت مصيدة النفوس، أما ترى خبت الزعازع حولها إذ ينظم

1 - عبد الله الركبيبي :المرجع السابق.ص:250-251

2 - المرجع نفسه .ص:252

وإذا تطرقنا لأهم الخصائص الفنية في شعر المدائح، نجد السمة البارزة في أغلب هذه القصائد أن المنبع الذي تستقي منه هو التراث العربي الإسلامي الذي ينتمي إلى موضوع المدائح بشتى أغراضها وأشكالها، فموضوع مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أساساً، يرجع إلى تراث عريق منذ أن جاءت رسالة الرسول، وكذلك مدائح الأشراف من آل البيت، وعلى هذا فإن الشعر الجزائري الحديث الذي تناول موضوع المدح لا تجد فيه التجديد المطلوب خاصة من حيث المضمون، لأنّ الشاعر الذي يتناوله يجد أمامه تراث ضخم من القصائد التي يزخر بها الأدب العربي منذ عصوره القديمة، فالشاعر يجول في مجال قديم، وتشدّه تلك الرسالة السامية ومكانة صاحبها لديه ولدى المسلمين، وأنّ التراث هو معين ثقافته الذي يستقي منه أفكاره، كما يستقي منه أدواته وطريقة بيانه أيضاً.¹

والأمر الممكن الذي يبحث عنه الدارس من حيث التجديد، إنما يكمن في أصالة الشاعر وتفرد من حيث الأسلوب وطريقة الأداء. ويضاف إلى هذا أنّ قصائد المديح في الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت أيضاً كانت من الكثرة بحيث يصعب على الشاعر الحديث أن يفوق فيها من سبقه وخاصة من شاعر تعرضت ثقافته للحصار والمطاردة، وتعرضت لضعف شديد من جراء الاستعمار.

إنّ المدائح بمختلف أشكالها، كانت نوعاً من التفتيس عن واقع الشاعر وحرمانه، وحرمان البيئة عامة من الحرية، فلاذ الشاعر بالدين والرسول صلى الله عليه وسلم يستلهم من رسالته ما يشدّ عزمه ويملأ حياته، كان هذا اللون من القصائد تعبيراً عن استمرار الأدب العربي.

وإذا ما أتينا إلى التصوف الخالص في الشعر الجزائري الحديث، والذي تقصد به ذلك اللون من القصائد التي اتجه فيها أصحابها إلى الحديث عن القضايا التي عرفت في الفكر الصوفي بوجه عام، وفي الأدب والشعر بلون خاص مثل: الغزل الإلهي، الحضرة الإلهية، وحدة الوجود، النور المحمدي، وغيرها من القضايا والأفكار الفلسفية التي برزت في الفكر الصوفي.

وبما أن الشعر الجزائري هو جزء من التراث الصوتي العريض، فلا بد أن يتأثر بما فيه من أفكار وأساليب، قوة أو ضعفاً، وأيضاً بمصطلحاته وبصوره، وبموضوعاته

¹ - عبد الله الركبي: المرجع السابق. ص: 260-261

وبرموزه، فهو امتداد له وتعبير عن الفكر الغيبي الذي ساد العهود المتأخرة في العالم الإسلامي.¹

التصرف في الجزائر لم يخرج إلى النور نتيجة طفرة معرفية، بل كان مسيرة طويلة مرت عبر مراحل، وكانت نتيجة لظروف ذكرها الطاهر "بونابي" في كتابه (التصوف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجريين)، إذا أن هناك من أرجعها إلى النهضة المالكية في القيروان - التاسع ميلادي - وهناك من أرجع أسبابها إلى تأثير المشرق على المغرب، وهناك من أرجعها إلى حركة الجهاد منذ الغزو المسيحي، وهناك من رأى أن ظهور التصوف في المغرب الأوسط يعود إلى حالة البذخ والترف والتفسخ الأخلاقي الذي انتاب المجتمع المغربي في عهد المرابطين، وغيرها من الآراء المتباينة، إن ظاهرة التصوف في المغرب الإسلامي عامة، وفي المغرب الأوسط خاصة لم تكن بعيدة عن نظيرتها في المشرق وقد مرت بنفس المراحل.²

ويمكن القول بأن التصوف كان الطابع العام للحياة الثقافية والأدبية في العصور الأخيرة في المغرب العربي بوجه عام، وفي الجزائر بوجه خاص، ويفسر انتشار التصوف بالجزائر كثرة الطرق والزوايا الصوفية، من أهمها: الرحمانية القادرية - الشاذلية - العيساوية - الدرقانية - السنوسية - التيجانية .

والذي يعنينا من هذا كله أن الشعر الصوفي نشأ في ظل " الزاوية " وبين جدران الطرق واستوحى نماذج من تراث السابقين عليه، فهو تقليد لهم واحتذاء لأساليبهم وموضوعاتهم وأفكارهم.³

ومن الموضوعات التي عني بها شعراء التصوف الجزائريين كثيرا تلك التي شاعت في قصائد الشعراء السابقين مثل الحديث عن المتصوفة ووصف حالاتهم وانجذابهم، أو مشاهدتهم ونشوتهم في حالي السكر والصحو، أو حالة الشك التي تعتري المتصوف وهو يلتمس طريقة إلى حب الله إلى جانب قضايا أخرى .

1 - عبد الله الركيبي: المرجع السابق.ص:297

2 - طاهر بونابي: التصوف في الجزائر. ص: 46

3 - عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط:1، 2011، ج.1.ص:299-303

ويعد "الأمير عبد القادر" أو شاعر جزائري حديث كتب في التصوف نثرا وشعرا، وترك تراثا ضخما لقياس إلى غيره من العلماء أو الشعراء في عصره فقد تشرب الدين منذ صباه، حيث نشأ في أسرة تنتمي إلى الطريقة القادرية كما تأثر بأفكار عصره وتأثر بالثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي يمكن اعتباره شاعر التصوف بلا منازع.¹

والقصائد التي تنسب إلى الأمير في هذا المعنى تجول في دائرة شعراء التصوف الأقدمين، فقدمهم في الموضوعات والأفكار والصيغ أيضا، والمتصوف شاعرا أو مفكرا يبدأ من نقطة الشك، لأنه الطريق إلى المعرفة فعندما تشك النفس أو يشك العقل، فليس هناك سوى البحث عن اليقين، وهذا الشك نجده في قصائد الأمير جليا واضحا، حيث تراه يتساءل في أحيان كثيرة عن وجوده، وعن حياته، بل يبلغ به الأمر إلى درجة أن يشك في نفسه وفي كل شيء مستخدما في ذلك حرف الاستفهام (هل) في أسلوب مباشر، والشك لدى الأمير ليس طريقا للإلحاد وإنما هو طريق يهدف من ورائه إلى البحث عن الحقيقة الإلهية، ومن بداية القصيدة نجده يعبر عن حيرته وقلقه:²

لقد حرت في أمري وصرت في حيرتي	فأي الأمور هو ثابت لي؟
فهل أنا موجود وهل أنا معدوم	وهل أنا ثابت وهل أنا منقي؟
وهل أنا ممكن وهل أنا واجب	وهل أنا محجوب وهل أنا مرئي؟
وهل أنا في قيد وهل أنا مطلق	ولست سماويا ولا أنا أرضي؟

إن فكرة القلق والشك ماثورة في قصائد الشعراء الجزائريين ولكن دون إلحاح عليها أو تركيز على أثرها في نفس المتصوف، ومهما يكن فإن الشك الذي أرق الشعراء المتصوفة هو الذي يبحث فيه صاحبه عن الإيمان وهذا ما تعبر عنه أبيات قصيدة للشاعر "عدة بن تونس" من البحر الطويل، وإن دخلها الزحاف وكثرت فيها العلل وانكسرت أبياتها فوق أن أسلوبها ضعيف لا إحياء فيه ولا جمال، يقول:³

تنازعتني روعي وشبحي فمن أنا	لقد حرت في أمري فمن لي بمن يدري
فإن قيل لي روح بقيت لا شبوح	وإن قيل لي شبح فاين روعي تسري

1 - عبد الله الركبي: المرجع السابق. ص: 303-304

2 - المرجع نفسه. ص: 310-311

3 - المرجع نفسه. ص: 317-318

ضللت ورب العرش لولا دليله هل أتى الإنسان حين من الدهر
 هناك موضوعات أخرى أكثر إيغالاً في التصوف أو أكثر مساساً بجوهره ومحيطه مثل
 الحديث عن الذات الإلهية والحقيقة المحمدية والغزل فيها معاً، متخذين من الخمر الإلهية
 رمزاً لذلك، وقد كرس الشعراء لذلك قصائد كثيرة تعبر عن شوقهم ولهفتهم وعن لا
 استغراقهم في هذا الحب الإلهي، أو مشاهدتهم للذات الإلهية، أو تعبر عن دهشتهم وفنائهم
 فيها، ومن هنا نجد معانيها مزيجاً بين هذه الأشياء كلها، ونادراً ما تقتصر القصيدة على
 عرض من هذه الأغراض بصورة كاملة .

يقول الشاعر في قصيدة يتغزل بالحضرة الإلهية وهي مكسورة الوزن، مطلعها :

ما ثم إلا حذام في تلوينها تسبي العقول بحسن أضحى منتشرا

يقول "العلوي" مستعملاً عبارات الغزل الصوفي :¹

دنوت من حي ليلى	لما سمعت ندها
يال له من صوت يخلو	أود لا يتناها
نميت عني، جذبتني	أدخلتني لحماها
أنستني خاطبتني	أجلستني بحذاها

ومعظم الأشرطة الأخيرة في القصيدة من آيات قرآنية :

يالها من نور يغني	عن الشمس وضحاها
بل هي شمس المعاني	والقمر إذا تلاها
بها نارت المباني	والنهار إذا جلاها

يقول "الأمير عبد القادر" متغزلاً بالذات الإلهية :²

أوقات وصلكم عيد وأفراح	يامن هم الروح لي والروح والراح
يامن إذا اكتلت عيني بطلعتهم	وحققت في محيا حسن تراتح
دبت حصياهم في كل جوهرة	عقل ونفس وإرضاء وأرواح

ولا شك أن هناك قصائد اتجه أصحابها إلى الغزل الصوفي، ولكنه غزل في "النور
 المحمدي" أو في "الحقيقة المحمدية" تلك القضية التي شغلت المتصوفة طويلاً، وبنوا

1 - عبد الله الركبي: المرجع السابق. ص: 331

2 - المرجع نفسه. ص: 335

عليها نظريتهم في التصوف ،وهي فكرة آمنوا بها وعبروا عنها في قصائدهم وأشعارهم وكتاباتهم .وفكرة (النور المحمدي) هي من القضايا التي عرض لها المتصوفة حيث نجد ذلك السيل من القصائد التي تتغزل في هذه الحقيقة أو النور ،ومن بينها قصيدة للشاعر "بوعبدلي" يتحدث فيها عن جمال الرسول صلى الله عليه وسلم ويتغزل بالحقيقة المحمدية:

لو رأيتم حسن من قد هويينا لا ارتضيتم في الهوى ما ارتضينا
لا ارتضيتم في الهوى كل هون وارتأيتم دونه الصعب هينا
واحتلمتم كل عبء وكانت جفوة الآلام لطفًا ولينا

وهنا يصف هذا الجمال ،وأنة مصدر الخير وينبوع الحسن ،وجمال الكون مستمد منه ، وكل ما في الطبيعة من عطر إنما هو من شذاه :

لا تقس في الحسن والجاه يوم * بالذي أهواه ذاتا وعينا
فهو ينبوع الجمالات لولاه لما لاقيت في الكون زينا
تاما في الكون من أي حسن ليس إلا من بها من هويينا
والذي في الكون من نبرات ليس إلا من سناه اجتلبنا
أو عبير عطر الكون طيبا ليس إلا من شذا من عينا¹

وهنا قصيدة للشاعر يمزج فيها بين الحديث عن الحب الإلهي و النور المحمدي هي :

ألا باسمات الحي أهلا ومرحبا بحسنكم الجلي على وجنة
وفيه انطوت أجناس فتق رتوقها ومنه تجبلت في الديار العتيقة
لذا كان سيد الخلق يدعى محمدا يلي أحمد في الرتبة الأولية

ونجد شعراء التصوف الجزائريين يعرضون في موضوعات مختلفة ما يقترن أحيانا بالحديث عن الخمرة الإلهية أو الغزل في الذات الإلهية أو غير ذلك ،الأمر الذي تبدو معه القصيدة مفككة في بنائها ووحدة موضوعها حتى أنه ليصعب أن نجد قصيدة واحدة خاصة بهذه الخمرة ، ومن القصائد التي تتناول هذا الموضوع قصيدة "الأمير عبد القادر" في مدح شيخه (محمد الفاسي) :

ويشرب كأسا صرفه من مدامة فيا حبذا كأس ويا حبذا خمر
فلا غول فيها ولا عنها ترفة وليس لها برد وليس لها حر

1 - عبد الله الركبيبي :الشعر الديني الجزائري الحديث .ص :334-335

ولا هو بعد المزج أصغفر فاقع
فلو نظر الأملاك ختم إنائها تخلوا
ولو شمت الأعلام في الدرس ريحها
فيما بعدهم عنها ويا بئس ما رضوا
ولا هو قبل مزج قان ومحمر
عن الأملاك طوعا ولا قهرا
لما طاس عن صوب الصواب لها فكر
فقد صدهم قصد وسيرهم وزر

فهي الأوصاف إنما هي للخمر الإلهية، لا للخمر العادية ويزيد الأمر إيضاحا ما يضيف إليها من أوصاف أخرى تجعل منها مركز للعلم والمعرفة :

هي العلم كل العلم والمركز الذي
فلا عالم إلا عالم إلا خبير بشربها
ولا غبن في الدنيا ولا من رزية
ولا حسر في الدنيا ولا هو خاسر
به كل علم حين له دور
ولا جاهل إلا جهول به غر
سوى رجل عن نيلها حظه نزر
سوى واله والكف من كأسها صفر

ويبلغ الشاعر درجة كبيرة من التقليد للقدماء في الأسلوب والوزن والقافية حين نجده يضمن بيتي "أبي نواس" في وصف الخمر العادية :

إذا زمزم الحادي يذكر صفاتها
وقال أسقني خمرا، وقل لي هي الخمر
وصرح بمن تهوى، ودعني من الكنى
وصرح ما كنى ونادى نأي الصبر
ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر
فلا خير في اللذات من دونها ستر¹

ويخلص الشاعر بعد هذا إلى وصف شاربي الخمر الإلهية فيصور حالهم بعد شربهم وسكرهم بها :

ترى سائقها كيف هامت عقولهم
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم
تميد بهم كأس بها قد تولهوا
فيطربهم برق تألق به الحمى
ويزكرهم طيب النسيم إذا سرى
ونازلهم بسط وخامرهم سكر
فنحن ملوك الأرض لا البيض والحر
فليس لهم ذكر وليس لهم فكر
ويرقصهم رعد بسلع له أزر
تظن بهم سحرا وليس بهم سحر²

ومن غير شك، فإن الشاعر الصوفي بعد أن أحب وتغزل، وبعد أن تجرد من عالم الحس المادي ليعيش في عالم الروح، بعد هذا كله لا بد أن يصل إلى قمة التصوف وهو مشاهدة

1 - عبد الله الركبي: المرجع السابق. ص: 344-346

2 - المرجع نفسه. ص: 356

بعد التجلي والفناء بعد السكر والاتحاد بعد الانفراد ، وهذا هو محور التصوف ، ومحور كثير من القصائد التي تنهج هذا المنهج وفكرة الشهود تتردد في شعر "الأمير عبد القادر" بصورة ملحوظة ، فهو بصورها في أسلوب قوي ، وكأنه يصف الحرب وأهوالها ، ولكن يضعف من القصيدة هذه الزخافات والعلل وهذا الاضطراب في الوزن ، فالشاعر في وصفه للفناء والشهود ، والمكاشفة ، يعتمد على توجيه الخطاب للمجهول ، يقول :

يا صاح إنك لو حضرت سماءنا وقت انشاقها حين لا تتماسك
وشهدت أرض زلزلت زلزالها ألفت ما فيها والجبال دكاك
ونظرت أرضا وسماؤنا وبرزخنا حللنا كل هالك
وشهدت صعقتنا والإله قائل الملك لي اليوم مالي مشارك¹

وبعد أن وصف الشهود ويمثله من اندماج وذهول عن الواقع ، بعد هذا يصف حاله بعد السكر ، وهذه دعوى المتصوفة في رؤيتهم الله ، ومشاهدتهم وادعائهم بأنهم يتلقون العلم اللدني مباشرة من الله :

ثم الإفافة والمهيمن يلقي من آياته ويقول أنت مبارك
لشهدت شيئا لا يطاق شهوده وسمعت ملا منه يدرك دارك
وعلمت أن القوم ماتوا حقيقة فإذا أباح لهم حماهم المالك

فهذا غلو وإسراف من الشاعر في دعواه بأنه رأى الله وسمعه يلقي من آياته ما لا يعرفها إلا هو وأمثاله ممن ماتوا حقيقة .

والشاعر مغرم بوصف الشهود والتجلي واللقاء في أسلوب فيه تصوير لهذا الموقف ولغته صريحة ، ويمزج هذا الوصف بالغزل يقول في قصيدة أخرى² :

تجلى لي المحبوب من حيث لا يرى فأعجب به أراه من حيث لا أرى
وغيبني به فغاب رقيبنا وزال حجاب البين وانحسم المرا
فصرت أراه كل حين ولحظة وقد كان غائبا وقد كان حاضرا

1 - عبد الله الركبيبي : المرجع السابق . ص : 358-359

2 - المرجع نفسه . ص : 360-395

والشاعر "محمد بن سليمان" مغرم أيضا بالحديث عن المشاهدة والمحو والفناء وما يصحب هذا هن لقاء ،وانعدام الزمان والمكان فقصائده لا تخلو من أبيات تعبر عن فنائه في الحب الإلهي واندماجه فيه :

ولا سكون والكون نقص
فهل للوجود من حال يقيم
كذاك البعد إن البعد معنى
يضل بغزوه الغبي الغشيم
وأين القرب إن القرب وهم
إذا تجلى من غيبه القديم¹

أما الحديث عن النفس وأهوائها نجد أن المتصوفة أفاضوا فيه فالنفس هي سبب البلاء وهي التي توقع المرء في المهالك وتدفعه إلى ارتكاب المعاصي واقتراف الآثام ،يقول الأمير في إحدى قصائده حيث يؤنب نفسه على أنه لم يستيقظ بعد من غفلته ،ثم يتوجه بعد ذلك إلى الله في دعاء حار يعبر عن عاطفته القوية وبنغمة صادقة متوسلا بالرسول صلى الله عليه وسلم:

أيا نفس إن الأمر غيب فما تدري
بما يكون الكشف في آخر العمر
فإما بشير باللقاء وبالرضى
على طول عتب بالزيادة للزور
وأما بضد بل كان ضد ذا
تعال إلهي عن عذابي وعن ضري
أيا سامع الشكوى ودافع البلوى
ويا منقذ الغرقى ويا واسع البرا
اتجهت لكم وجهي بأكرم شافع
محمد المبعوث للعبد والحر
لترسل لي عند الوفاة مبشرا
برضوانك الأوفى وفوزي في الحشر²

ويقول "ابن عبد الله" :

فمنها معرفة عيب النفس
تزنوا أوصافها دون لبس
لأنها سبعة في القرآن
أمانة لوامة الإنسان
وهي خبيثة بل هي أخبث
من كل شيطان فخالف تلف

وهذه الأوصاف للنفس تتردد في شعر المتصوفة الجزائريين ،ويقول الشاعر :

النفس أنفس من تلقية يحميك
أولى وأوفى وأصفى من يصافيك

1 - عبد الله الركبي: المرجع السابق. ص: 365

2 - المرجع نفسه. ص: 390-394

ومن كنفك لو أبقت فطرتها فأنت صيرتها أعدى أعاديك¹

وبعد أن وصفها بأنها ليست عدوا للإنسان ينتقل إلى نقد صاحبها إلى الإنسان الذي يوجهها كما يشاء فهو المسؤول عن انحرافها وفسادها، يقول :

هودتها بصفات الخبث مفتخرا بما عن الحضرة العلياء يقصيك

نصرتها فهي للصلبان ساجدة صلبان شهواتها سما-تغديك

مجستها فعدت للنار عابدة نار الهوى فهي بالنيران تصليك

ويهاجم الإنسان الذي ينقاد لها ويندفع وراءها بلا تفكير فيرتكب الخطايا :

شوهتها بطباع لو تخيرها تختار ذلك في إحدى مواسيك

وليس في عدم الإحساس متكل فعند كشف الغطاء حقا تلاقيك

أصبحت نفسك باللوامة اتسمت مقامها بسنى الأنوار يعطيك

إن هذه النماذج من شعر التصوف نجد فيها تقليد واستحياء للنماذج السابقة عليهم والتأثر بمن سبقهم من شعراء التصوف. وإن معظم هذه القصائد لا تخلو من عيوب في عروضها وخاصة بحورها فأغلبها من البحور الطويلة، وربما السبب أن الغزل الصوفي يتطلب نفسا طويلا، والسبب في أغلب الأوزان مبتورة فيما ترجح يرجع إلى ضعف الثقافة اللغوية لدى بعض الشعراء.²

2- الشعر الإصلاحى :

إن كل من يتتبع الشعر الجزائري بوصفه واقعا فكريا وفنيا يرجح أن تكون الحركة الإصلاحية التي عرفتها البلاد في عهد الاستعمار وعلى طول امتدادها هي المسار الحقيقي من حيث مبناه على وجه الخصوص، فالشعر في ظلها استطاع أن يعيش اللحظة والواقع بصفة عامة، فكشف عن نوايا المستعمر المستبد، وتتبع سير أعماله ونضجها، كما وقف بالمرصاد للانحراف الديني الذي ساد فترة الاستعمار. وطبيعي جدا أن يرتبط الشعر بفكرة الإصلاح في هذا الظرف العصيب إذا عرفنا حقيقة الشعر من جهة وإذا سلمنا بواقع البلاد الذي كان بحاجة إلى التغيير والإصلاح من جهة ثانية، ومن هنا اتجه الشعر إلى التركيز على فكرة الإحياء وكانت النظرة فيه سلفية تتجه إلى الماضي الذي يمثل النموذج

1 - عبد الله الركبي: المرجع السابق.. ص: 390-394

2 - المرجع نفسه ص: 410-411

المحتذى¹ إنها الحركة الأدبية ذات صلة بالوضع الوطني والاجتماعي، فقد كان الأديب دائما منير الأمة وصدى همومها وآلامها وآمالها، ولسانها المعبر عن معاناتها وطموحها، ونرى أن الاتجاه التقليدي المحافظ في الشعر الجزائري هو الذي تجشم ورواده عناء أعباء الإصلاح والتوعية والتوجيه على عاتقه في وقت كانت الجزائر تحت وطأة الاستعمار الغاشم، ففي مطلع العشرينات شرعت جذوة الحس الإصلاحية تنقد أكثر من ذي قبل، مما أشعل فتيل صراع فكري بين الفكر الوطني الإصلاحية القائم على العربية والإسلام والجزائر من جهة، وبين سياسة الاستعمار والفكر الحوالي له من جهة أخرى.² وفي ظل هذه الحركة بعث الشعر الجزائري، حيث أخرج من سطحية الفكرة إلى عمقها ومن جمودها إلى حركتها. لعل أبرز منحى سلكه الشعر في هذه الفترة هو الاتجاه الديني، وما يفسر لنا هذا عدة أمور منها :

* حركة الإصلاح وربط حاضر الأمة بماضيها، وهي تعد نقطة تحول بارزة في تاريخ الجزائر الفكري والفني .

* الوقوف عند السيرورة التاريخية، أي الصراع الذي قام بين حركة الإصلاح وفلسفة الاستعمار الصليبي صراع ديني قائم على الخداع قبل أن يكون حربا استعمارية وقد كان الخداع حتى لا تتحرك العاطفة الدينية عند المسلمين، فيهبوا للدفاع عن وطنهم كما يشاءون.³

* الانخراط شبه الكلي لشعراء ما قبل الثورة في الحركة الإصلاحية والشاعر في هذه الآونة كان بصدد تطبيق وتبليغ رسالة سماوية، حيث حارب العدو وأعلن رفضه للانتماء لعقيدة غير عقيدة الإسلام. ويوم أن انبعث الإصلاح الديني لم يعد في الوقت متسع لمهادنة الانحراف فيه، ولا في الصدر سعة للمحاورة والمهادنة.⁴

¹ - سعد الدين صالح: احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، مكتبة رحاب، الجزائر. ص: 25

² - عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط: 2، 2009. ص: 62

³ - الوناس شعباني: تطور الشعر الجزائري منذ 1945 حتى سنة 1980، ديوان المطبوعات الجامعية. ص: 24-25

⁴ - صالح خرفي: الشعر الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، مطابع الشروق، ببيروت. ص: 34 -

وفي هذا الظرف كان لمثل (نادي الترقى) الذي تأسس بالعاصمة الجزائرية سنة 1927 دورا بارزا في الحركة الثقافية عموما والحركة الإصلاحية خصوصا، وقد قام هذا النادي بمهمة جليلة في إشاعة الحرف العربي، دورسا ووعظا وخطابة من أجل التمكين للحس الوطني، وقد وفق هذا الصرح في مهمته أيما توفيق بشهادة المفكر "مالك بن نبي" هذا المحيط الجديد غذته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفكرها الإصلاحي بعد تأسيسها بقيادة أقطاب فكر وإصلاح من قبيل "عبد الحميد بن باديس" "محمد البشير الإبراهيمي" "العربي تبسي" "الطيب العقبي" وغيرهم، حيث انطلقت عاصفة الإصلاح من قسنطينة وبدأت في المنطقة بعض الأسر المسلمة تفكر في رد اعتبارها على أساس الوطنية والدين¹

كان الانحراف الديني إبان ظهور العلماء قد بلغ أقصى ما يمكن أن يطمح إليه من تواطؤ سافر مع المستعمر .

ولم تقتصر هذه الثورة العارمة من الشعراء على المستعمر فحسب، بل مشى أيضا أدياء الدين من مرابطين وأولياء وطرقيين. والشاعر في هذه الفترة بدأ يتأمل واقع المجتمع وما وصل إليه محاولا إصلاحه من زاوية الدين، فنراه يذكر في كل مناسبة بأن الرجوع إلى القيم الروحية واقتفاء أثر السلف الصالح سبيل النجاة²، وكانت تعرية أدياء وفضح سوءاتهم تمثل الانطلاقة الأولى للشعر المرابط في الواجهة المضادة للانحراف، فقد كان الأولياء يحيطون أنفسهم بقداسة مرعبة مرهبة للبسطاء من الشعب، فقد أصبح الدين في عرف أديائه تعبديا وأصبحت الحكمة من السارية المجسدة لهذا الوضع المنحرف (اعتقد ولا تنتقد) وفي حرمة هذه القداسة عاش الانحراف الديني أزهى عصوره ورفض أدياء الدين أيديهم من كل واجب أمر به الدين واستحلوا كل ما نهى عنه، وتعالوا بقداستهم إلى ما فرق الفرائض والواجبات، واستوى الحلال والحرام في اجتهادهم.

كان هذا التطرف في الانحراف أكبر مبرر للتطرف والعنف في الهجوم عليه، فوجدنا شعرا ينتفض حقا على التلاعب بالدين، ويشمئز من أديائه بل وجدنا شعراء يتقرعون لهذه الواجهة الصارخة، يكرسون لها شعرهم ويقصرون عليها مواقفهم، والأدهى من ذلك

¹ - عمر بن قينة : في الأدب الجزائري الحديث . ص : 60-61

² - عبد الله ركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث ، دار الكتاب العربي ، الجزائر ، ط:1، 2011، ج.1، ص:563

في نظر الشاعر المصلح هو تقبل العامة لهذا المنطق الغريب وخضوعها لها، بل اعتقادها فيه أنه الدين الصحيح يقول "محمد السعيد الزاهري":¹

كانوا طوائف شتى كل طائفة	تطيع شيخا لها في كل ما زعما
إن قال إني ولي صدقوه، وإن	هو ادعى الغيب قالوا أحكم الحكما
وإن تعلم بعض الشيء تهجية	قليلة هتفوا يا أعلم العلماء
و إن هو ارتكب الفحشاء فاضحة	فلا محالة، معذور و قد أثما
أو احتسى الخمر قالوا أنها عسل	ولا غرابة في هذا ولا جرما
أو ادعى أن خير الخلق يخدمه	فما اعتدى عنهم فيها، ولا ظلما
أو لم يصل رأوه حسبما زعموا	يقيمها إذ يزور البيت والحرما
إذا بكى حسبوا الأيام باكية	ويضحك الدين والدنيا إذا ابتسما
في كفه المنع و الإعطاء عندهم	والدين والخير فيما شاد أو هدمما

وعلى نهج "الزاهري" و"العقبي" نلتقي بـ"رمضان حمود"، الذي كان من فرسان الإصلاح:

فمن شاء أن يحيا على الناس مترفا	ومنعزلا عنهم أحب التصوفا
لينفث سما في العقول بزهده	ويجعل دين الله سرا ليقتفي
الأول له فليتخذ فوق ربوة	مغارا مجرر الصب سجنا ومختفي

وفي الثلاثينيات يبرز "حمزة بوكوشة" بمقطوعاته اللاذعة في الانحراف حيث يقول:

ربع قرن قضيته في الصحافة	دائبا ساعيا لنشر الثقافة
لم تؤيد مدى الحياة خوونا	غادرا للبلاد أو ذا خرافة
يدعي العلم والتصوف حتى	يكسب الفلوس أو يروم اختطافه
ظنه الجاهلون شيخا تقيا	وهو من يحتسي كؤوس السلاقة

في هذه المقطوعة يفضح "بوكوشة" التناقض المريع بين مظهر الولي الخادع ومخبره الزائف فهو يظهر للناس في مسوح التقى والزهد، ويختلي لنفسه في صورة شيطان.²

¹ - صالح خرفي: الشعر الجزائري. ص: 36-37

² - صالح خرفي: المرجع السابق. ص: 41-42-43

والإحساس المرهف عند شعرائنا بالحالة التعيسة التي عاشتها الجزائر في أوائل هذا القرن ،فجر فيهم نعمة جريحة شجية ،كثيرا ما تغطي ملامح التفاؤل في شعرهم ،وتخفق نغمة الأمل في قصائدهم ،وتغمرهم بإحساس مريّر بالعربة بخيبة ،إن هذا الإحساس بالعربة لم يسلم منه مصلح يدرك خطر الرسالة التي ينهض بها .
 غدت القصائد تشبه المرآة تتدب الحالة في الجزائر وتبكي مصير المصلح فيها وخاصة قصائد "الزاهري" وفي طليعتها ليتني ما تعلمت حرفا :

لم أجد في الشقاء من هو أشقى	بحياة من (عالم) محروم
لا ولا في متاعب الدهر صعبا	مثل نشر العلوم بين العموم
بين قوم ،عمي البصائر ،صم	ليس فيهم غير الجهول الأثيم
هو في الجهل كالحمار ،ولكن	هو في المكر كالمريد الرجيم
يسمع الحق واضحا مستبينا	فيعيه وعي العتل الزنيم
أنا والله عفت فيهم حياتي	وبقائي فوق هذا الأديم
لا أرى بينهم نهار سرور	كل عيشي في الليالي الحسوم
ليتني ما قرأت حرفا ولا أعرف	فرقا ما بين ،كاف وجيم

وهناك قصيدة بعنوان (علام تلوم الدهر) لـ"رمضان حمود" حيث يصور فيها الحالة المزرية التي آل إليها المجتمع الجزائري آنذاك فهو يرف من التواكل ويعده ضعفا ويحث على الأخذ بالأسباب ،إنه يصرخ في وجه المتقاعسين الذين يرجعون كل شيء إلى قضاء الله وقدره حيث يقول :

علام تلوم الدهر والله عادل	وننسب للإسلام ما هو باطل
ونملاً وجه الأرض رطبا ويابساً	بكاء وهل تجدي الدموع الهواطل
ونجزع للمكروه من كل حادث	وما ذاك إلا ما جنته الأنامل
فلن يظلم الله لعباده بحكمه	ولكن كفر المرء للمرء قاتل
ونزعم أنا مسلمون وديننا	تعيت به الأهواء والكل ذاهل
ونبغى حياة العز والجهل دأبنا	وهل نال عزّافي البسيطة جاهل
نسير وراء الناعقين تهالكاً	لنحظى ببعض الشيء والشيء سافل
ترى قولهم حقاً وصدقاً وحجة	وإن جاء منهم تافه فهو كامل

تقلدهم كالبغاء تفرنجنا ولم نتبع ما قررتة الأوائل¹

هكذا تبقى هذه المقطوعة شريطا سينمائيا يعرض علينا في أي وقت نشاء يوضح لنا واقع الإنسان الجزائري المغلوب على أمره، كما يوضح حقيقة الشاعر الجزائري الغيور على وطنه ودينه، ويبقى جوهر هذه المقطوعة المستنبط من الإسلام هو جوهر القصائد الدينية الأخرى خلال هاته الفترة، والجدير بالملاحظة أن فترة الثلاثينات كانت تزخر بالشعر الديني، ومرد ذلك يرجع إلى الوعي العام على الصعيدين الديني والسياسي².
والإصلاح الديني في الثلاثينات كان يصد هذه الرسالة بأقصر ما يمكن من جهد، وتعتبر هذه الفترة أزهى الفترات نشاطا للحركة في هذا المضمار، فكانت بذلك أغزر الفترات شعرا يسجل هذا النشاط الذي ساءه هذا التدهور العقلي في فهم الدين وحقيقة مبادئه، وجوهر تعاليمه، لم يتردد في الاتجاه الى المنبع الأصلي والدستور السماوي للإسلام، فمن القرآن كان المنطلق الأول في صقل أذهان الناشئة في المدرسة³ وعقول العامة في المحافل، والمواسم واستبعاد الغشوات المضللة وجعلها تتهاافت على هدى من وضوح تعاليمه وانجلاء صورته وآياته يخاطب "محمد العيد" طلابه في مدرسة الشبيبة الإسلامية بقوله :

يا معشر الطلاب هل من آخذ	بالذكر أو متمسك بعصامه ؟
فتشرفوا بالأخذ من آدابه	وتعرفوا بحلاله وحرامه
ولكل شيء في الحياة أذية	وأذية القرآن من أقوامه
عملوا على التحذير من تفهيمه	فكأنهم عملوا على إعدامه
هجروا مبادئه العلى وتنكبوا	أحكامه والخير في أحكامه

ولم يكن القرآن يعاني من الأدعياء على الدين فحسب ولكن من أعدائه أيضا من المستشرقين الذين أدركوا خطره، فتناولوا عليه، وعلى مبلغه عليه الصلاة والسلام، ويقول "اللقاني السائح"⁴:

¹ - صالح خرفي: المرجع السابق. ص: 49

² - الوناس شعباني: تطور الشعر الجزائري منذ 1945 حتى سنة 1980. ص: 26

³ - صالح خرفي: الشعر الجزائري. ص: 47

⁴ - المرجع نفسه. ص: 49

بني وطني هل من نزوعٍ لأجدادِ لقد ركبوا للعلم سهوةً منطادٍ؟
 بني وطني هل من شيوخٍ أجلةٍ غدواً في سماء العزّ كعبةً قصادٍ؟
 يدبُّون عن حوض الشريعة كلِّما أناط بها الأعداء شُبُهَةً حُساد!!

ولما ولدت الحركة ميلادا رسميا ، تلمّس الشعر فيها بعثا جديدا للإسلام ودستوره السماوي ، وخلقاً أكثر جدة للشعب الذي ينتمي إليهما يقول "الزاهري" :

حي العروبة في جمعية العلماء وحي ويحك فيها الدين و الشيما
 تدعو إلى الله عن علم وبينّة لا كالذين إلى جهل دعوا ، وعمى
 (جمعية) جمعت بعد ذلك على الـ قرآن والسنة الغراء أهلها

والحركة الإصلاحية السلفية التي تنطلق من القرآن والسنة لا تقف عندهما بل تجد فيهما حوافز إلى أبعاد اجتماعية وفكرية وسياسية ، ولقد ظلت هذه الحركة في أشد مواقفها إغراقا في السياسة مسنودة الظهر بالإسلام الصحيح ، مدعومة الحجة بالتراث ، تستمد منه وضوح المبدأ وسلامة الفكر وصلابة الموقف ، وتجاوبا مع هذه الأبعاد لم تتوقع الحركة في المسجد الذي شهدت في ميلادها ولكنه حادها إلى المدرسة الحرة والنادي الثقافي والجريدة الوطنية .¹

وفي آفاق الحركة الإسلامية ووسائل ذبوعها وانتشارها حلقت القصيدة الدينية ، وكانت مطاردة المستعمر للتجمعات الوطنية ، وخنقة الحريات ، ورقابته الصارمة تشحن المواسم التي تشهر الحركة على إحيائها وتأتي المناسبة الدينية في صدارة تلك المواسم لاتصالها الوثيق بأهداف الإصلاح فتقام الحفلات المولدية والعيدية للرجوع بها إلى منبعها الأصل والبعث عن الزيف الذي لحقها ، وكان للشعر دوره في هذه المناسبات .

والمناسبة الدينية غالبا ما تكون فرصة للالتفات إلى الماضي واستحضار مواقفه المجيدة ومقارنتها في هلع وتفجع بالحالة الراهنة التعيسة ، أو تكون في صورة استصراخ لأبطال التاريخ العربي الإسلامي ، واستتجاد بأيامهم المشهودة في وجه الظلم والطغيان وفي كل ذلك تحفيز الهمم وبعث النخوة .² والشاعر يجد في هذه الذكريات وتعاقبها مظاهرا لتجديد العهد وتأكيد البيعة ، وتوثيق الصلة بالماضي .

¹ - صالح خرفي : المرجع السابق . ص : 51

² - المرجع نفسه . ص : 54

كانت الموالد النبوية تجسم المنعرج السنوي لاحتضان التاريخ، فهي الذكرى التي تستطيع إن تلعب دورا رائدا في تصحيح الأوضاع المنحرفة وتسليط الأضواء الكاشفة على الزوايا القاتمة، وكذلك اتخذ المولد صورة مقارنة دائمة بين الماضي والحاضر في المولديات في الشعر الجزائري وثيقة هامة لتسجيل الإحساس الديني والوطني الذي كانت يد المستعمر له بالمرصاد، حتى يفلت منها في مناسبة دينية قومية، فينقلب المولد مظاهرة صاخبة، نلتمس فيه مدى التجارب العميق مع الاماني الوطنية في مسوح دينية ومناسبة رتيبة تطالعنا كل عام.

ولعلنا لكي ندرك القفزة التي حققتها الحركة الإصلاحية للمواسم الدينية، نلقي نظرة على الطريقة التقليدية التي كانت تقام عليها هذه المواسم، تلك الطريقة التي لا تخلو من شوائب ما أنزل الله بها من سلطان، تطمس المغزى المراد من الذكرى وتحصرها في دوامة من الطقوس البدائية. الفرصة سانحة لدسائس المتدمر في طمس أي تاريخ ينزع إليه هذا الوطن والفرصة أكثر سنوحا للانحراف الديني فالحركة الإسلامية حققت لهذه المواسم خطوتين:

الأولى: تنقيتها حتى الشوائب والضلالات التي تسبب فيها الانحراف الديني .

الثانية: إعطاؤها بعدا قوميا وطنيا سياسيا .

فالشاعر "محمد العيد" في أحيانه للمولد النبوي تجده يخلق في الآفاق البعيدة للرسالة السماوية والموافق البطولية لظهور الإسلام والتركيز في حياة "محمد" صلى الله عليه وسلم على جانب الجهاد¹ والوقوف مليا عند غزواته وفتوحاته، وتلك هي مصطلح الشعب الجزائري وهو يعاني من التحكم الأجنبي .

إن قصيدة أنشودة (الوليد) تعطينا صورة للملاح التي يلتمسها الشعر في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، تلك الملاح التي تضع الشخصية التاريخية في إطار البطولة والفروسية، فالرسول قائد حرب وبطل فتوحات يسعفه الدهاء السياسي بقدر ما تطاوعه فروسية السلاح :

بمحمد أتعلق وبخلقه أتخلق

¹ -صالح خرفي: الشعر الجزائري. ص: 52-53-54

ل ودينه بي أليق	إن التعلق بالرسو
ف جنوده لا يخرق	يا قائدا في الحرب صـ
عك يوم خط الخندق	لي أسوة بك في دفا
ع على ربوعك تهرق	يا شعب أنداء الربـ
صدر العدو ويرشق	أنا نبعة يرعى بها
ينوي ابتلاعك يمشق	أنا صارم في وجه من
جك) في سواك لأحمق!	إن الذي يبغى (اندما
رات الرسول مطوق	لا ينمحي شعب بشا

وفي مولدية أخرى للشاعر ذاته 1937 تتلمس نفس الملامح فتغدر القصيدة صارخة بالإسلام أن يعود إلى سابق عزه ومجده ،ومقارنة مؤلمة محفزة بين الماضي والحاضر ،

أقمنها لميعاد	ألا يا حبذا ذكرى
خ من خاف ومن باد	بها نستعرض التاريخـ
تعالى فوق أطواد	سلوا التاريخ عن طود
حماها من يد العادي	سلوا التاريخ عن أرض
لام كم باهت بأجناد	سلوا عن دولة الإسـ
بأمواج وأزباد	سحاها الدهر كالبحر
وأودى طيره الشادي	فأودى شاطئ الخلد
على أنقاض أعواد ¹	وخر الروض أعوادا

إن تعاقب المناسبات الدينية التي فرضت نفسها على المستعمر ،تجد المشاعر فيها متنفسا والأقلام الإصلاحية انطلقها ،حتى غدت هذه المناسبات مظاهرا من مظاهر النهضة الإصلاحية المعاصرة في الجزائر تحشد لها هذه النهضة كل طاقاتها في إقامة المحافل وتختفي الجزائر بموسم الحج احتفاءها بالمولد النبوي ،فقد كانت وفوده غادية رائحة أو كان الشعر مودعا او مستطيلا.

و (الحجيات) و(المولديات) قصائد تنبض حيننا إلى الأمجاد ،وتنتفض حقا على الحاضر التعيس وتطفح أملا في الغد المشرق فهي لا تستعرض (الفريضة) إلا استعراض الذكرى

¹ - صالح خرفي :المرجع السابق. ص: 55-56

والعبرة الموحية ثم نخلص إلى المغزى القومي من التجمع الديني يقول "محمد العيد" في وداع الحجيج سنة 1938¹.

قل للذين من الجزائر حزموا	صوب الحجاز رحالهم تحزيما
بالأمس كنا ظاهرين على العدى	ومرغمين أنوفهم ترغيمًا
واليوم نسعى بعد فقد فخارنا	أن نستعيد فخارنا ونديما
وإذا رغبت الى جسيم في المنى	فاركب إليه من الأمور جسيما
يا أمة شقيت ببعض رعاتها	وتحملت منه العذاب أليما
أبغى التحرر وانشدي الإصلاح	لا تبغى (الوظيف) وتنشدي التوسيمًا

ومع اشتداد وطأة الاستعمار واشتداد ساعد الإصلاح يتصاعد الاتجاه الوطني في القصائد الدينية حتى يكاد يطغى عليها في بعض المواقف، فيبرر إدراجها في السياسيات وتحسن بهذا الاتجاه طاغيا على القصيدة ولو اقتصر على أبيات معدودة منها واعتقل الباقي للمناسبة، ويقول "محمد العيد" أيضا حين يعدد للحجيج سنة 1948²:

اسألوا الله راحة للمعنى	واسألوا الله عصمة للتعريف
واسألوا الله عزة ورشاد	وسداد لشعبه الإفريقي
ويح افريقيا، نقضت عهود	وهي رهن للأسرة والتطريق
أين أسلافها الذين بهم قبل	غزا (طارق) حمى (لذريق)

فالحج - كما ترى - انطلاقة مشاعر وانقلاب أمانى أخانها البوح في الوطن المستعمر فتصدت في حرم الله وامتزجت بتضرعات حجاجه، وكثيرا ما تتوارد أطياف الأمجاد في موسم الحج، يقول "محمد العيد"³:

لنا وطن مثل الفرادس بهجة	فكيف رضينا أن يداس وينهب
وكيف رضينا أن نعيش أدلة	حيارى يرانا الغير أحقر منها
لسنا من الأجناس أفصحهم فما	وأسمحهم دينا وأصلحهم أبا؟
بنا درت الدنيا عليهم بخيرها	وأخصب منها كل ما كان أجدا

1 - صالح خرفي: المرجع نفسه. ص: 56

2 - صالح خرفي: الشعر الجزائري. ص: 57-59

3 - المرجع نفسه. ص: 60

ولدنا وأنجبنا ففرزنا عليهم ومن ولد الصيد المناجيد أنجبا

وما يشد انتباهنا أن الشعر الديني الجزائري دخل الثورة غير محتشم، فهو لم يعد ينطلق من المناسبة الدينية المميزة له، وجعل منها سبلا إصلاحية وإنما انصهرت هذه الأخيرة في أجواء الحدث غير أن هذا لم يمنعها من تحريك المغزى العام للقصيدة والسماح لها بالذهاب بعيدا لمعالجة المستجدات اليومية، فالدين الإسلامي في هذه الفترة تتأثر داخل القصيدة وبقي عمله يسرى تحت غطاء الثورية يقول "مفدي زكريا":

يا مهرجانا بأهل الله مزدهرا الله أكبر! هذا اليوم مشهود
اليوم يا ناس، يوم البعث فاستبقوا للصالحات، فما في الخير تحديد
يا جيرة الله لبوا أصوت أمتكم يا جيرة الله، في أوطانكم ذودوا
من يشتري الخلد؟ إن الله بائعه فاستبشروا وأسرعوا فالبيع محدود¹

فالمناسبة التي انطلق منها الشاعر هي مناسبة ثورية، إذ وقف مفتخرا ببلاده المسلمة معتزا بيوم نوفمبر المشهود، إنه يوم بعث وإحياء، فهو يدعو أبناء أمته إلى البذل والعطاء في سبيل الله لإخراج البلاد من المحنة التي أحاطت بها، إنه يحثهم على الجهاد، هذه التجارة الغالية التي - لم ولن تبور، أبدا - فمن جاهد في سبيل الله من أجل رفع كلمة الله، كان حقا على الله أن ينصره، يقول "مفدي زكريا":

وقال الله كن يا شعب حربا على من ظل لا يرعى جنابا
وقال الشعب: كن يا ربّ عوناً على من بات لا يخشى عقابا

وها هو الشاعر مفدي زكريا يقف في مكان آخر ليدحض ويبطل الأقاويل، والتهم التي ألحقت بشعبه، ويحرض على إثبات الشيم الحميدة، والخصال الإسلامية له؛ فالشعب الجزائري شعب وصادق لا يتصنع الصدق ولا العدل، وورث النبل، والشرف، وكرم الضيافة عن أجداده الأشراف.

ومما يؤكد لنا الطابع الديني للشعر الجزائري تعرضه لأخطر الأفكار التي عرفت في اللحظة، وبالضبط كيفية التعامل مع النصارى واليهود، ومهما قيل فالجزائريون قد راعوا للأخوة الإنسانية مبادئها، يقول "مفدي زكريا":

ونحترم الكنيسة في حمانا ونحترم الصوامع والقبابا

¹ - مفدي زكرياء: اللهب المقدس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. ص: 270-271

وكان محمد نسبا لعيسى
وموسى كان يأمر بالتآخي
وكان الحق بينهما انتسابا
وحذر قومه مكرًا وعابا

ويقول الشاعر :

فلا نرضى مساومة وغيبا
ولن نرضى شريكا في حمانا
ولا نرضى لسلطتنا اقتضابا
ولو قسمت لنا الدنيا منابا¹

فالشاعر في هذين البيتين يجسد فكرتين أساسيتين في قاموس الأخلاق الإسلامية هما :
*العزة لن تكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين .
*الدعوة الى الابتعاد عن الطمع والإغراء .

ولما كانت الحرية لا تعطى كان على الشاعر أن يرسم الطريق المؤدي إليها المتمثل في
المعركة والجهاد .²كنا نرى هذا مثلا عند الشاعر "محمد العيد" الذي يقول :

فهل للمسلمين اليوم عود
وهل لرجالهم عزمات صدق
وهل لشعب الجزائر مستيقن
وهل بالتحريير سوف يحظى
إلى ما ضاع من شرف الجدود
إلى الأهداف تقدح كالزنود
من الأحلام مطرح الرّكود
كأمة (ليبيا) أو (كالهنود)
يجيب إلى المعامع حيث نودي
ولا يعطي التحرّر غير شعب

إلى أن يقول :

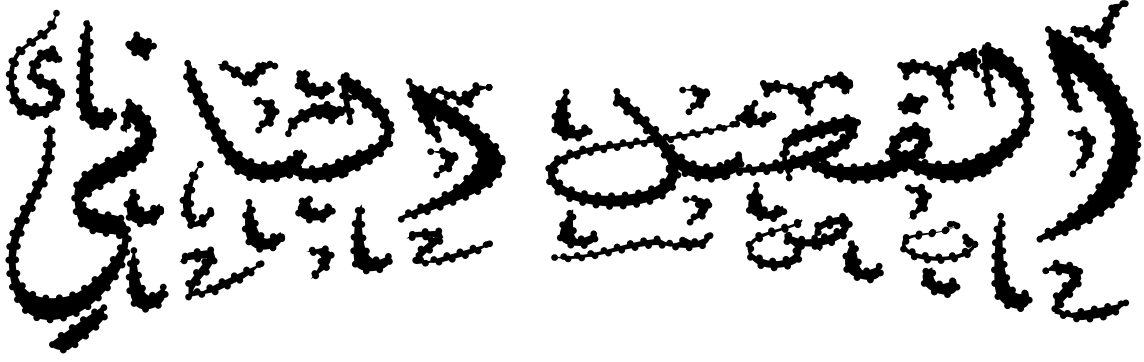
بني الإسلام احيوا الدين
قد بن محمد دين الترقى
شعائره واوفوا بالعقود
ومجد محمد مجد الخلود³

عملت الحركة الاصلاحية على قيادة وتوجيه الحركة الادبية في الجزائر ، واستطعت ان
تنقل الشعر من عوالم الغيب الى مجريات الواقع ، وتعبير عن قضايا الامة وتطلعاتها.

¹ - مفدي زكرياء :اللهب المقدس ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،ص: 32-39-41

² -الوناس شعباني :تطور الشعر الجزائري منذ 1945 ن سنة 1980 .ص: 26

³ -محمد العيد آل خليفة :الديوان ،الشركة الوطنية ،الجزائر ،1967،ص: 200-207



نماذج مخصصة من شعر "محمد العيد آل خليفة"

I. الأصول البيئية والاجتماعية والثقافية للشاعر "محمد العيد آل خليفة"

1/ ولادته ونشأته

2/ ثقافته

3/ وفاته

II. من آراء وتجارب "محمد العيد آل خليفة"

1/ العقيدة في شعره

2/ الإسلام واللغة والقومية في شعر "محمد العيد آل

خليفة"

3/ نظرته إلى الدعوة الإصلاحية

III. نماذج من شعر "محمد العيد آل خليفة"

1/ قصيدة "هيهات يغزى المسلمون"

2/ قصيدة "تحية المسلم الجديد بنوا علي"

3/ التأويل الصوفي لقصيدة "أين ليلاي"

1. الأصول البيئية والاجتماعية والثقافية للشاعر "محمد العيد آل خليفة"

1/ولادته ونشأته :

لقد احتضنت الصحراء الجزائرية "محمد العيد" في مولده ونشأته، مثل الكثرة الغالبة من هؤلاء الشعراء إذ ولد في مدينة العين البيضاء، وفي أحضان أسرة عريقة في التدين وتحت رعاية أب صوفي بتاريخ 27 جمادى الأولى 1322هـ/28 أوت 1904م، فنشأ في ذلك الجو الأسري المفعم بالتقى والعفة والورع فتشربت نفسه هذا الحب العميق الموروث للعقيدة الإسلامية و الأخلاق الفاضلة.¹

وانتقل مع أسرته إلى مدينة "بسكرة" وهو في الرابعة عشرة من عمره، وأمضى الشطر الأكبر من حياته بها، يستكمل ما تعلمه في طفولته بالقرية الأولى من حفظ القرآن الكريم، وتلقى المبادئ الأولية على أيدي مشايخها. وانقطع عن "بسكرة" عامين قضاها في "تونس" دارسا في جامع الزيتونة.²

وفي السنة الدراسية الثانية أدركت الشاعر أتعاب و أمراض أضعفت جسمه، فعرض نفسه على الأطباء ولكن صحته لم يطرأ عليها تحسن فقرر الرجوع إلى الجزائر سنة 1923.

وهكذا رجع الشاعر دون أن يحصل على أية شهادة علمية واستقر به المقام بعد ذلك بمدينة "بسكرة"، وكان ما يزال طالب علم متعطشا إلى المزيد من مناهله فاتصل بالشيخ "المختار اليعلاوي ارطباز" واختلف إلى دروس الشيخ "البشير الإبراهيمي" بالزاوية "التيجانية" وإلى دروس الشيخ "الطيب العقبي" التي كانت تتمركز خاصة حول التفسير وعلوم البلاغة.³

بالإضافة إلى هذا شارك في حركة الانبعاث الفكري بالتعليم والكتابة في الصحف والمجلات العربية الجزائرية، حتى توجه إلى الجزائر العاصمة، حيث عمل معلما بمدرسة الشبيبة الإسلامية الحرة ومديرا لها مدة اثني عشر عاما، وفي هذه الفترة أسهم في تأسيس

¹ - محمد بن سمينة: شخصيات لها تاريخ، محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية-

الجزائر، 1989، ص:7.

² - حسن فتح الباب: محمد العيد آل خليفة شاعر الجزائر، الدار المصرية اللبنانية، ط:1، 2002، ص:23.

³ - محمد بن سمينة: شخصيات لها تاريخ، محمد العيد آل خليفة، ص:9.

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وكان من أعضائها العاملين ، ونشر معظم قصائده في صحف هذه الجمعية. ثم كانت عودته الثانية إلى "بسكرة" سنة 1940 بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ، ونزول جنود الدول المتحالفة - ومنهم الأمريكيون - في الجزائر، التي كانت تستعمرها فرنسا منذ سنة 1830. ومن هذه المدينة انتقل إلى "باتنة" في الجنوب الجزائري أيضا ، ثم إلى "عين مليلة" ، حيث قضى في مهنة التعليم أربعة عشر عاما أخرى كانت خاتمتها سنة 1954 وهو تاريخ اندلاع ثورة التحرير الجزائرية.¹

2/ثقافته :

أمضى الشاعر جل حياته في البيئة الصحراوية ، فكان من الطبيعي أن تنعكس كل هذه العوامل على مرآة حياته وشعره ، وأن تشكل قصائده مضمونا وقالبا واتجاها ومواقف. فتجربته الحياتية والفنية محدودة بالدائرة الضيقة التي عاش في نطاقها ، فهو شاعر تقليدي في موروته الثقافي عامة والشعري خاصة ، وهو رجل تعليم ذو نزعة دينية متأصلة ، ومثل أخلاقية تنبع من هذه النزعة ، وتجعل منه داعية للتطوير والإصلاح ، كما أنه خطيب مسجد.²

ثم إن الطبيعة الجغرافية و البيئية للصحراء ليست وحدها التي انطبعت على شعره ، وإنما أثرت فيه أبلغ تأثير جناية الاستعمار الاستيطاني الفرنسي على الجنوب الجزائري ، ذلك أن نصيب هذا الجنوب من تلك الجناية كان أكثر من سائر المناطق ، إذ اقتسم معها آثار النكبة الاستعمارية ، وانفرد دونها بقسوة العوامل الطبيعية ، بما يترتب عليها من شظف العيش ، والانغلاق في عزلة عن العالم ، لبعده المسافات وانعدام وسائل الاتصال أو ندرتها وتمثل كل ذلك في الفقر والأمية... فكان الإحساس بالاضطهاد والقهر قسمة مشتركة بين أبناء هذه الصحراء وواحاتها يولدون ويحيون ويموتون به ، ولم يكن "محمد العيد" إلا واحدا منهم ، وهب المقدرة على التعبير عن مأساتهم وحثهم على الكفاح والجهاد في سبيل الانعتاق والخلص.³

ولا ينبغي أن يفهم مما سبق أن الشاعر كان في ثقافته منغلقا محدود الأفق زاهدا في

1 - حسن فتح الباب :محمد العيد آل خليفة شاعر الجزائر.ص:24

2 - المرجع نفسه.ص:24-25

3 - المرجع نفسه.ص:26

الاطلاع على ثقافة وتجاوب الآخرين وإنما الذي نود أن ننوه به أن "محمد العيد" لظروفه وظروف شعبه الخاصة... كل ذلك لم يكن ليتيح له ما أتيج لغيره من بعض شعراء العربية في العصر الحديث من امتيازات...، وفيما سوى ذلك فقد كان الشاعر متطورا في فكره متفتحا في نظراته على التجارب الانسانية داعيا إلى الإفادة¹ منها حيث يقول :

لست ما عشت للتقدم ضدا	غير أنني على الحمى غير جاني
إن حفظ المقومات حياة	كل شعب أضاعها فهو فاني
خل عني المستوردات ودعني	فكفاني وردي النمير كفاني
أو فخذ لي ما كان منها شرابا	مستطابا لشعبي الضمان
وتعلم ما شئته من علوم	وفنون بحكمة واتزان ²

كانت ثقافة الشاعر تتميز بثلاثة اتجاهات هي:

الاتجاه الديني، و الاتجاه الأدبي، و الاتجاه الصوفي

لقب "محمد العيد" بعدة ألقاب عبر مسيرته الشعرية وهي كما يلي :

_ شاعر الشباب

_ شاعر الجزائر الحديثة

_ شاعر الشمال الإفريقي

_ شاعر العروبة و الإسلام

_ أمير شعراء الجزائر

_ أمير الشعراء³

3/وفاته :

ودع الشاعر حياته بعد حياة صاخبة بالشعر و الذكر و الجهاد في 31 من جويلية لعام

1979⁴، وقد ترك لنا آثارا منها أنشودة الوليد، رواية بلال بن رباح، وديوانه⁵.

1 - محمد بن سميحة: شخصيات لها تاريخ، محمد العيد آل خليفة. ص: 16-17

2 - محمد العيد آل خليفة: الديوان، الشركة الوطنية، الجزائر، 1967. ص: 269

3 - محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر طبع بمطبعة دار هومة، ج 1 ص 233_234

4 - أحمد دوغان، شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989 ص15

5 - محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر. ص 234

II. من آراء وتجارب "محمد العيد آل خليفة"

1/ العقيدة في شعره:

لاحظنا فيما سبق أن صلة الشاعر بالدين قوية، وقد تواترت الأخبار عن عارفيه وتلاميذه و أصدقائه أنه كان تقيا ورعا في مظهره وسلوكه، كما أن ما لدينا من شعره يدل على أنه كان يستلهم كثيرا من خواطره و أفكاره من رصيده الديني ويهدف في أكثر ما يقول إلى غاية دينية واضحة .. وهذا السلوك يتمثل في عدة مظاهر منها، في الخارج أنه كان يطلق لحيته ويغطي رأسه ويلبس الجلباب ويؤدي الواجبات الدينية في أوقاتها. وكان يطرق في شعره موضوعات دينية محضة أو تهدف إلى غرض ديني كالحملات التي شنّها على بعض المستشرقين و القصاصد التي هناؤها الداخلين في الإسلام من الأوربيين أو التي أشاد فيها بمصلح كبير أو مؤسسة معروفة كما فعل مع الشيخ "عبد الحميد بن باديس" في حفلة ختم القرآن ومع الجمعيات الإسلامية وجمعية العلماء، والشواهد على ما نقول كثيرة يجدها القارئ مبنوثة في شعره.¹

ففي الرد على أعداء الدين له عدة قصائد منها قصيدة (هذيان أشيل)، و"أشيل" أحد غلاة الاستعماريين في الجزائر، وقد كتب عدة مقالات في إحدى الجرائد المتعصبة تحامل فيها على الإسلام والمسلمين، فكان رد الشاعر قائلا:

هيهات يعتري القرآن تبديل وإن تبدل توراة و إنجيل
 قل للذين رموا هذا الكتاب بما لم يتفق معه شرح وتأويل
 هل تشبهون ذوي الألباب في خلق إلا كما تشبه الناس تماثيل²

ويطالع شعر الحكمة قارئ ديوان "محمد العيد" بمجرد أن يفتح صفحاته، إذ يستهله الشاعر بالأبيات الآتية التي يسجل فيها أن تقديم العبرة أو العظة و الدعوة إلى العمل لإنقاذ الشعب هما الدافع الأساسي الذي يحفزّه إلى النظم:

رويت لمن يعي خطرات قلبي عسى أن يستفيد بما رويت
 رأيت أذى الحياة على بنيتها طغى فوصفت منها ما رأيت

1 - أبو القاسم سعد الله: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، دار المعارف، مصر، ط: 2

ص: 101-102

2 - محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص: 269

على أني ارتجيت نجاة شعبي فأسعفني الإله بما ارتجيت¹

أما في الداخل، من أعماق الشاعر، كانت النزعة الصوفية تطغى عليه أحيانا حتى تضطره إلى الانقطاع عن قول الشعر وهجر الناس، وقد أشار الشيخ "البشير الإبراهيمي" إلى ذلك فقال: ((يلم به هذا العهد الأخير نوبة نفسية غريبة كان من آثارها إيثاره للعزلة عن الناس وهجره لقول الشعر... ويخشى أن تحتد هذه النوبة وتشتد فتعكس إلى نزعة صوفية جارفة))² إذ يتوجه بقلبه وروحه إلى ربه لعله يجد على النار هدى، كما يقول مخاطبا قلبه:

أقنني جانب الدنيا أقنني فإني من متاعها أنن

إلى الأخرى فخرج بي تفرج على نار يكاد بها جن

وهو يعتبر نفسه أسيرا للفرائض الدينية إذ يطمع في حياة أفضل وأكمل بعد اليوم، وأي حرج في أن يكون أسيرا في يومه هذا طليقا في غده ينعم بالحرية المطلقة وراحة الضمير الكبرى:

هوأي فرائض للحق تلقى على كتفي وآداب تُسنن

رضيت بأن أكون لها أسيرا رضيت... ورب أسر فيه من

وتتوثق صلته بالعالم الآخر فيرغب في قطع جميع الأسباب التي تربطه بهذه الحياة المليئة بالشهوات والأطماع والمظالم وينادي بقلبه أن يتحرر وينطلق من عقاله ووحله وأن يفيق من تصابيه الذي لم يعد يرضاه له دينه الحنيف ولا سنه المتقدمة:

تحرر وانطلق يا قلب حينما إلى كم أنت للشهوات قن

أفق يا قلب من سكر التصابي فلا يرضاه لي دين وسن³

ويصف نفسه الممزقة التي لا ترى أين الطريق ولا كيف الخلاص من هذا العالم الشقي الهابط، فيقول:

حيران كالتائه الضليل ليس له هاد بأجرف واد كلها زلق

¹ - حسن فتح الباب: محمد العيد آل خليفة شاعر الجزائر. ص: 24

² - محمد الصغير بناني: فك الإسار في شعر الهزار، تحليل بلاغي وأسلوبى لمقطوعة يا هزاري لمحمد العيد، مركز

البحث في الإعلام العلمي والتقني، بن عكنون-الجزائر، 1996، ص: 111

³ - أبو القاسم سعد الله: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث. ص: 101

ولكن من ذلك الهادي الذي ينشده أو الذي سيأخذ بيده كيلا ينزلق في الوادي السحيق؟ إنه هذا الذي يتوجه إليه في رهبة وابتهاال وينقطع إليه في حب وأمل:

وجهتي للذي هداني وقصدي وصلاتي لوجهه والصيام¹

2/الإسلام واللغة والقومية في شعر "محمد العيد آل خليفة":

"محمد العيد" شاعر عربي أصيل، يجري الدم العربي الحر في عروق أسرته منذ أجيال، وتتجلى مظاهر عروبته في غيرته الشديدة على اللغة العربية وثقافتها، وتغنيه بمجد العرب التالذ...، يقول الشيخ "الإبراهيمي" عنه: ((الأستاذ "محمد العيد"، شاعر الشباب، وشاعر الجزائر الفتاه، بل شاعر الشمال الإفريقي بلا منازع)) ((شاعر الجزائر، بل شاعر العروبة والإسلام))²

والقضية التي استأثرت بمجهود "محمد العيد" وملكت عليه وجدانه بعد الدعوة إلى إحياء تعاليم الإسلام الصحيحة هي إحياء الفصحى التي أراد العدو بمحاربتها تفريغ الأمة من شخصيتها الحضارية، حتى يسهل له قيادها³ فقد قسمت فرنسا اللغة العربية في الجزائر إلى ثلاثة أقسام مشوهة: الأول-اللغة القديمة، وهذه لغة جامدة أو ميتة لا يستعملها أحد، ولا يفهمها أحد، والثاني-اللغة العامية، وهي غير كفيلة بترجمة العواطف والافكار وبالتالي فهي ليست لغة أدبية أو علمية، والثالث-اللغة الفصحى الحديثة وهذه لغة أجنبية عن الجزائر لأن موطنها هو البلاد العربية، والجزائر ليست عربية وهذا هو منطلق الاستعمار إذ ذلك، وقد وقفت الجزائر كلها أحزابا وأفرادا تنادي بهذا الحق المقدس، تطالب باعتبار اللغة العربية لغة رسمية، عبر الشاعر عن هذا التيار الوطني، ثم أشار إلى أن الشعب الجزائري من سلالة عربية عريقة، وأن الذين يحاولون فصله عن عروبته وتجريده من لسانه القوي سيدركهم الفشل لا محالة:

نحن إلى نيل الحقوق نفوسنا وتأبى علينا نيلها قوة الغشم
ونقصي عن الفصحى ونلهي بغيرها وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي

1 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق. ص: 102

2 - صالح الخرفي: محمد العيد آل خليفة، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007

3 - حسن فتح الباب: محمد العيد آل خليفة شاعر الجزائر. ص: 43

وما نحن إلا من سلاله يعرب فمن رام عنها فصلنا باء بالرغم¹
ولذا كان بناء مدرسة التعليم العربية عنده يعادل إنشاء قلعة سامقة للدفاع عن كيان
الشعب، وفتح الطريق أمامه للخروج من رِبْقَةِ التخلف، وهو يعبر عن هذا المعنى في
قصيدته (إلى العلم) التي أنشدها في حفل أقيم بمناسبة تشييد مدرسة بمدينته بسكرة:

رعى الله في أرض المعارف نهضة مباركة في العلم تسمو إلى النجم
وتنشئ للفصحى مدارس عدة مشيدة البنيان محكمة الدعم

وهو إذ يخاطب الطلاب في قصيدته "الثورة العظمى كسبنا نصرنا" يوصيهم باثنتين، هما
قوام الغد المأمول في النهوض بالبلاد، وحمل رسالة التنوير والتحرير:

فتدارسوا القرآن فهو هدى لكم وشفاء أنفسكم من الأسقام
وتعلموا فصحي اللغات فإنها علوية الأسرار و الأنغام
كونوا مع التعريب واحموا جنبه لا تنسخوه بنقطة الإعجام
لا تجنحوا للعنصرية إنها تفضي إلى التفريق والإعدام²

وقد عزف "محمد العيد" كثيرا من أنغامه على غيثارة العروبة ووحدة شعوبها انطلاقا
من انتمائه الأصل إلى أمته فهو يشارك الأقطار العربية في مآسيها الكثيرة وأفراحها
القليلة مدركا أن قوتها في وحدتها، وضعفها في تفككه ففي قصيدته "العروبة أمنا الكبرى"
التي نظمها سنة 1964 يقول:

ما نحن إلا إخوة من أسرة كرمت أرومتها وطاب المحتد
إن العروبة أمنا الكبرى التي في الأمهات نظيرها لا يوجد

ويقول في قصيدته "هذه قمة الفتوة" سنة 1965 مؤكدا انتماء الجزائر إلى الأمة ومبشرا
بوحدة المغرب العربي على درب الوحدة الكبرى، معددا -في نبرة فخر واعتزاز- أسماء
الأقطار العربية:

ولنا أمة العروبة أم ذات عطف على الجزائر حان
وحدة المغرب استعدت ظهورا واستعزت بوحدة العُربان

¹ - أبو القاسم سعد الله: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث. ص: 116

² - حسن فتح الباب: محمد العيد آل خليفة شاعر الجزائر. ص: 44

فتحت ليبيبا إيلنا يديها وعلى الأوسط انحنى المغربان
 وإيلنا الحجاز واليمن انحنى ازا وجاد الكويت بالرنان
 نحن في مصر والعراق هوى الشعب وفي سوريا وفي لبنان
 وبشرق الأردن حزنا وفي ما لي على رفعه وفي السودان¹

فعروبته تجلت في مشاركته للأمة أحداثها الكبرى كقضية فلسطين، وثورة الجيش المصري، واستقلال ليبيا، والسودان... وليس من غرضنا التحدث هنا عن هذه الموضوعات... لأننا نريد أن نبدي رأيه فقط في عروبة الجزائر وشعبها الأصيل ودفاعه عن لغتها وقوميتها العربية كما سبق الذكر .

3/ نظرتة إلى الدعوة الإصلاحية:

اندمج "محمد العيد" في الحركة الإصلاحية اندماجا كليا. وقد أصبح بفضل إيمانه بالدعوة الجديدة، وتحمسه لها، أحد الأشخاص المرموقين في هذه الحركة التي رفعت لواءها جمعية العلماء منذ سنة 1931، بل منذ ظهر الشيخ "ابن باديس" إثر الحرب الأولى. والواقع أن عمله لم يكن مقتصرًا على مهنته كمدرس ناجح.. بل كان عمله أوسع من هذا وأبعد مدى، فهو مثلا كان يؤم الناس في الصلاة، ويتجول كداعية، ويحضر الاجتماعات العامة، وينظم الشعر في الدعوة إلى هذه الحركة، ولم يكن هذا العمل محدودا بالفترة التي قضاها في العاصمة مديرا لمدرسة الشبيبة، بل يشمل تاريخ حياته كله تقريبا. ويكفي للدلالة على مدى ارتباطه بهذه الحركة الإصلاحية وتمثله لها ما جاء في ديباجة قصائده المنشورة في الشهاب والبصائر، وفي ديوانه المخطوط، ثم ما جاء في شعره من الإشادة برجالها ومؤسساتها ومبادئها. يقول "محمد العيد" باسم هذه الحركة إنهم الدعاة إلى الطريق المستقيم، وليس فيهم مجرم، ولا آثم، وإنهم يؤثرون السلم على الحرب. ويفضلون التطور والكلام على الثورة والسلاح.²

نحن الدعاة إلى الحسنى فما أحد منا بمجترح للشر مجتـرم

¹ - حسن فتح الباب: المرجع السابق. ص: 15

² - أبو القاسم سعد الله: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث. ص: 104

ألا فقل للذي فاجأنا لا تلق بالحرب من يلقاك بالسلم

ولنذكر هنا أن شعار الشيخ "ابن باديس" في دعوته إلى الإصلاح كان هو الآية: ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)) والبيتان نظم لهذا الشعار، واقتباس من الآية الكريمة.

ويهيب "محمد العيد" في مكان آخر بالدعاة أن يخوضوا بالجزائر أمواج الشك والإلحاد، وأن يعلوا بها إلى اليقين والرشاد، وأن يقتلعوا بها جبال الاستعمار والعملاء، فإذا قيل لهم إن عدوهم جبار عنيد، فليقولوا له: إن الله معنا، وهو أعظم قدرة وأجل شأنًا من العدو مهما تجبر وطغى :

يا مشهرين من العزا ثم مثل مرهفة الأسل
خوضوا بها الأمواج واعلوا الشهب واقتلعوا القل
من قال جلّ عدوكم قولوا له المولى أجل
نحن الدعاة ولا ونى نحن الحماة ولا وجل¹

وهو يؤمن في إصرار بالظفر في مهمته، ولذلك يعتب على من يزعم له أن الشعب في شغل من دعوته، ويصف هذا الزاعم بالعدل والتقاعس والوسوسة، ويتهمه في عقله ووطنيته :

وكم قائل لي حين أصغى لدعوتي رويدك إن الشعب عنك لنا عس
ألا ويحنا من عاذل متقاعس على عقله الواهي تروج الوسوس

ومن الإنصاف أن نقول: إن هذا الحماس قد لازمه في الفترة الأولى من حياته... وهي الفترة التي تنتهي بخروجه من العاصمة أوائل الحرب العالمية الثانية، ونلاحظ أنه كان يعبر بقوله نحن فعلنا كذا أو نفعل، وما أشبه ذلك. وقد سمى إحدى قصائده (نحن حزب مصلح سلفي)... وهذا كله يعطينا صورة عن مدى إيمانه بمبدئه، وتغلغل فكرة الإصلاح في نفسه، ولكن هذا الحماس لم يلبث على حدته وعنفوانه، بل لقد فتر وأصبح مجرد تأييد لقافلة الإصلاح التي اشتهر أمرها في الجزائر، أو فلنقل تحول هذا الحماس إلى عمل، وأصبح عقيدة داخلية راسخة تؤدي دورها في صمت ووعي وانقطاع.²

1 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق. ص: 105

2 - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق. ص: 106

III. نماذج من شعر "محمد العيد آل خليفة"

1/ قصيدة "هيهات بغزى المسلمون"

نظم شاعرنا هذه القصيدة في سنة 1934، وألقاها في الاحتفال السنوي لمدرسة الشبيبة الإسلامية بالعاصمة، إنها تتألف من ثلاثة أقسام رئيسية، أو ثلاثة موضوعات مختلفة على ما بينها من صلة، وبالرغم مما أحسن الشاعر من ربط بينها، وتخلص من موضوع إلى موضوع، والشاعر "محمد العيد" محافظ على العمود الفني التقليدي للقصيدة العربية، فهو وإن لم يبتدئ قصيدته هذه بالبكاء على الأطلال، ولا بالنسيب والتشبيب، فإنه يحترز من الهجوم على موضوعه هجوماً، ويحتاط بأن يقدم له بمدخل لا يتناقض مع صلب الموضوع تناقضا كاملا، ولكنه لا يشكل معه جزءا ضروريا لبناء القصيدة كوحدة متميزة ذات سمات فنية بارزة. فالشاعر يعنون للحديث عن المسلمين¹، فيخيل إلينا أنه سيعرض إلى هذا الموضوع في قوة، وسيعبر عنه في غير هوادة ولا احتشام، ولكنه يرى أن من واجبه أن يقدم لحديثه عن المسلمين توطئة طويلة يبسط فيها القول عن الله، و الأنبياء والشرائع، فيستغرق كل ذلك نحواً من عشرة أبيات. ولعل الشاعر اضطر إلى هذه التوطئة نزولاً عند الظروف التي ألفت فيها القصيدة، وهي ظروف أقل ما يقال عنها أنها كانت فرصة لتمتين عقيدة الإسلام في نفوس سامعيه.

لنرى الأقسام التي تؤلف قصيدة "محمد العيد"، وهي على التوالي الإسلام وما يتصل به، و المسلمون، و الجزائر والجزائريون، وقد بدأ قصيدته بهذا البيت :

حمدا لمن في الحق غاث و غار ولوجهه عنت الوجه صغارا

فحمد الله الذي أغاث في الحق، وعنت له الوجوه، وسبح له لجزره القوي ومنع أذاه، وحماية الضعيف و إجارته، ونعته بأنه الغالب القهار فوق عباده وبأنه لا يطيق أحد أن يكيد له، أو يعقب على حكم من أحكامه، و لأنه هو الذي خلق القوي، وعلم الغيب، وقدر الأقدار، وأنزل الأديان، وجعل الشرائع أنهما مرضية، وبعث الأنبياء أدلة على إسلامهم، وأبرارا بأقوامهم، واختص محمدا بالمنح العظام، واختاره خاتما للأنبياء، وأتاه القرآن الذي فصل فيه الأحكام و الأخبار وشريعة وصفها الشاعر وصفا جميلا في قوله :

¹ - محمد مصاييف: فصول في النقد الأدبي الحديث، الشركة الوطنية، رغبة-الجزائر، ط:2، 1981، ص:13-14

وشريعة تعطي الحقوق سوية للناس لا ميزا ولا استثنارا
شمس من الأفق المقدس أشرقت فارتد ليل العالمين نهارا
وحجة بيضاء من لم يعتصم بسوائها ضل السلوك وچارا

هذه أبيات عشرة نظمها الشاعر، كما سلف، في الحديث عن الله والأنبياء والقرآن والشريعة. وبالنظر إلى الأبيات التي أوردها كلها نجد "محمد العيد" ألح على شيء رئيسي كان يجيش في نفسه، ولعله كان يجيش في نفوس سامعيه، وهو هذا الظلم الذي كان ينصب من المستعمر القوي، على المواطن الضعيف. وشاعرنا يلتجئ بهذه المناسبة إلى الدين والقرآن والشريعة لتثبيت إيمان مواطنيه، ولنصحهم بالصبر والصمود حتى ينتصر حقهم على ظلم أعدائهم. ولكنه لم يكتف بالدرس في العقيدة، ولا بهذه النصائح الدينية، وإنما أبى إلا أن يسوق المثل، ويقدم الأسوة. ومن أحسن قدوة من هذا الرعيل الأول الذي سماه حزب الله هو الذي سار في المحجة البيضاء التي تحدث عنها في القسم السابق، والذي نعم بالأمن، وهدى العباد، وفتح الأمصار، وملك المعمور نوهيات يخزي أناس دينهم الإسلام. ويحذر الشاعر أعداء هذا للدين منبها لهم بأن المسلمين قد أدركوا فيقول في هذين البيتين:¹

هيات يخزي المسلمون ودينهم علم الخلود يضل الأقطارا
قولوا لمن راش النبال لصيده ألق النبال صيدك طارا

ولكن لا يلبث أن يذكر أن المسلمين ليسوا من القوة بحيث يعتقد، بل هم في عناء، فيدعوا الله، في البيت التالي، أن يغيثهم وينصرهم، ويرفع عنهم ما أثقل قلوبهم من أكار:

يا غارة الله السريع غياثها خفي الينا وارفعي الأكارا

وبهذا ينهي الشاعر القسم الثاني الذي لم يتجاوز خمسة أبيات، وهو كما ترى تأكيد للقسم السابق، وإشارة إلى تاريخ المسلمين في عهدهم الأول. وكأننا ب"محمد العيد" يريد بهذا أن يقارن بين هؤلاء المسلمين الذين رغم قتلهم، بلغوا كل منى، وقوضوا الممالك، ومصرروا الأمصار، لا شيء إلا لهذا الإيمان الذي كان يملأ نفوسهم، ويبعثها على العمل والمصاولة، ويهون أمامها كل تضحية في سبيل خدمة المبادئ العليا، والمصلحة العامة، وبيننا نحن

¹ - محمد مصايف: المرجع السابق. ص: 15-16

الذين رغم كثرتنا ،بلغ الضعف منا كل مبلغ ،لا لشيء ألا لفتور إيماننا ،وضعة نفوسنا
وحبنا للحياة مع الهوان والذل.¹

أما الموضوع الثالث ففيه الحديث عن الجزائر وما آلت إليه من ضعف ،فبيعت هذه
الزفرة القوية من أعماقه قائلا :

كل الأراضي في النعيم رضية إلا الجزائر فهي تصلى نارا

هذا البيت يعبر أحسن تعبير عن حالة الجزائر قبل الحرب العالمية الثانية((إلا الجزائر
فهي تصلى نارا))نعم كانت الجزائر في حالة شبيهة بالنار في حرها وآثارها ،فالاستعمار
لم يبق في أرضها ،ولا في أيدي بنيتها ،شيئا يستحق الذكر :فقد أكلت ناره الأخضر
واليابس ،ونشرت الحرائق في القلوب و الطبيعة ،وأفقرت المواطنين وجهتهم ،وزرعت
بينهم العداوة والبغضاء ،واضطرت نساء الجزائر إلى العمل وبذل أعراضهن ،كما قال
الشاعر في هذه الأبيات الرائعة حقا ،والمدمية للقلوب حقا ،و المثيرة للنفوس بمبناها
ومعناها :²

وتنازع الإخوان هذا بالأذى يسطو وذاك يريد الثارا
والفقر فاش فالنساء سوافر يكدحن في طلب المعاش حيارى
يبذلن حتى أعراضهن في تحصيله ليقتن أبناء لهن صغارا
يا للرجال لحرمة مهتوكاة أفشاعرون أم الرجال سكارى

ثم ينبري "محمد العيد" لتقريع هؤلاء الرجال باللوم اللاذع فيذكرهم بأجدادهم الذين ضربوا
أحسن الأمثلة في الكرم والشهامة ،ويتعجب من كونهم لم يأتسوا بهذه الأمثلة ،ولم
يتخلصوا من أوهامهم ،ويحرروا عقولهم و أفكارهم .ثم يحضهم على الترفع عن
المتعززين الطغاة ،وبالتكبر على المتكبرين المغرورين ،وبالصمود لأعدائهم كالجبال
الراسيات ،والحصون الحاميات للدمار .

ثم يتفلسف الشاعر ،فيلفت نظر سامعيه إلى أن أولادهم خلفاؤهم في الحياة ،وأنه من
واجبهم لذلك أن لا يلدوا غير الكرام و الأخيار ،وأن يكفوهم مؤن الحياة ،ويقوهم الأشرار

¹ - محمد مصاييف : المرجع السابق.ص:17-18

² - محمد مصاييف :المرجع نفسه .ص: 18-19

،لأن سبل المعاش ضاقت بهم ،ولأن المخازي أهدقت بهم من كل جانب .ويأبى "محمد العيد" إلا أن يلتفت لرجال المال فلاحين وتجارا ،فيعجب لكونهم عادوا وسائل للشر ،وأصبحوا لا يحسنون اقتصاد المال وتوفيره إلا بطريق البخل والتقتير .ويختم قصيدته التي تجاوز طولها 30 بيتا باستفسار مواطنيه إن كانوا سيفيقون من سباتهم ،ونهيهم عن اليأس ،لأن الله جعل الدنيا بين الأمم دولا وأطوارا راجيا أن يبذل الله إهانتهم عزة ،وعسرهم يسرا .

2/قصيدة "تحية المسلم الجديد بنوا علي"

هي قصيدة نظمها الشاعر سنة1954للاشادة بإسلام فرنسي كان يدعى "بنوا" ،وتسمى بعد اعتناقه للإسلام "علي سليمان" ،وإن غيرة "محمد العيد" في هذه القصيدة لقوية ،وابتهاجه بانتشار الإيلام لعظيم ،وقوته في التعبير لمثالية .وكيف لا يكون كذلك وقد فرض الإسلام نفسه حتى في باريس ،قلب المسيحية ،ومركزها المشع .وقد انتهز "محمد العيد" إسلام هذا الفرنسي ليذكر بمكانة سلمان الفارسي ،وصهيب الرومي ،وبلال الحبشي في الإسلام ،ويندد بموقف بعض المواطنين الذين غرهم ،في عهده بريق الحضارة الغربية ،فتهاونوا في شأن دينهم ،وتتكروا لكثير من تعاليمه.¹

هجم الشاعر على قصيدته هذه بمطلع جميل يشتمل على شاعرية كبيرة:

زفت إليك عرائس الإلهام فطرحت عنك بوالي الأوهام

لقد كان "بنوا" يوم أسلم في عرس عظيم ،ولقد زفت إليه عرائس فائقات في الجمال ،ناهيك أنها عرائس من الإلهام إلى طريق الهدى والنجاة. فقد تحرر من كل هذه الأوهام ،وعاد في عرس من اليقين والهدى. وما ذلك إلا لكونه نفص عنه الكسل و التقليد ،وعزم على الوقوف بنفسه على الحق في مصيره ومصير الإنسان الحائر في هذه الدنيا ،فعمد إلى دراسة الأديان السماوية ومن بينها الإسلام ،وتذرع في هذه الدراسة بالصراحة والإنصاف. فكافأه الله تعالى على هذا العزم البطولي ،وهذه النية الصادقة :

وبحثت في الأديان بحثا منصفا فجنحت بعد البحث للإسلام
هذا هو الكنز الدفين كشفتُه ببصيرة نفذت وفكر سامي

¹ - محمد مصاييف :فصول في النقد الأدبي الحديث ،الشركة الوطنية،رغاية-الجزائر،ط:2،1981.ص:23

بحث بحثا منصفا ، فأهداه بحثه إلى أن الإسلام هو دين الحق ، وإلى أنه كنز دفين لا يمكن العثور عليه إلا بإعمال الفكر ، والمقصود بالكنز الدفين قيمة الإسلام و عظم أهميته. ثم ينتقل الشاعر إلى ذكر سبب إسلام "بنوا" وبلائه في مقاومة نفسه التي ألحت عليه من غير شك في عدم الإقدام على الإسلام ، فقال :

حسننا وما بليت باللوام	"أبنوا" لقد أبليت في حرب الهدى
بصراحة برئت من الإبهام	ونصرت في باريس دين محمد
مرعية رفعتك فوق الهام	لو كان للإسلام فيها دولة
فجئت دجاك ببرقها البسام	بهرتك "ظاهرة" بدت من مالك
وسلمت من شرك ومن إجرام	إنني أراك علوت رتبة
وكرامة واخذ على الأيام	فالحق باتيان وجونسو رفعة

أجل أبلى "بنوا" بلاء حسنا في مقاومة نفسه ، ودفعها إلى البحث عن دين جديد أولا ، ثم فرض هذا الدين عليها أخيرا . ولكن بلاءه العظيم إنما كان في عدم اهتمامه ومبالاته بلوم أصدقائه وأبناء جلدته ، فليس من شك في أنه لقي من هؤلاء كل شر ، وأنه تعرض لكل محاولة عرقلة وتعطيل ، ولكنه تغلب على كل المحاولات ، وظهر على كل شر فأعلن الإسلام في قلب باريس ، ولم يكن ذلك في لين ورفق ، بل كان في صراحة ما بعدها من صراحة ، وفي قوة برئت من كل إبهام . واستعمل هذه الصراحة في إعلان إسلامه إلا لهذا الإيمان القوي بما عثر عليه ¹ . ثم يستمر الشاعر فيذكر السبب الذي أدى "بنوا" إلى اعتناقه الإسلام في قلب باريس ، فيقول أنه انبهر بالظاهرة القرآنية لمالك بن نبي الكاتب الجزائري ، ويستمر بالإشادة بموقف "بنوا" الجريء ، وبأنه علا قومه رتبة ومنزلة . والجميل في هذه القصيدة هو هذه الأبيات التاريخية التي عرض فيها الشاعر لأسماء معروفة لدى المسلمين فذكر سلمان الفارسي ، وصهيبا الرومي ، وبلالا الحبشي ، بعد أن ذكر "بنوا" المسلم الجديد بأنه سبقه إلى الإسلام ونصرته بلاد الأعاجم "اتيان" و"جونسو" ، فقال في هذه الأبيات :

فالحق "اتيان" و"جونسو"	رفعة وكرامة واخذ على الأيام
هذا هدى من قام مضطعا به	أم الرجال وشم كالأعلام

¹ - محمد مصايف : المرجع السابق . ص: 24-25

"سلمان" فاق الفرس أجمعهم به و"صهيب" فاز به على الأروام
وبلال ساد على الأحباش ما دوى الآذان بمطرب الأتغام

فالإسلام هدى من يضطلع به يؤم غيره ويمتاز على الناس امتيازاً يشبه بشمم الأعلام الشامخة، لا يستطيع أحد أن يكابر وتاريخ الإسلام شاهد حي يكذب مكابرتة من أساسها. وليس في مكانة أحد أن يؤم الرجال لمجرد إسلامه، بل لا بد من الاضطلاع به قلباً وقالبا ومن العمل له ليلاً ونهاراً.¹

وينتقل الشاعر من هذه الأبيات إلى الترحيب بالمسلم الجديد "بنوا" وإشراك جميع المسلمين في هذا الترحيب وهذه التحية فقال :

"بنوا" بنو الإسلام من أقطارها حيوك بالترحيب والإعظام
أنت الفرنسي الضيف فمرحبا بك من شقيق واجب الأكرام
الدين إذعان لرب واحد سبحانه هو غافر الآثام

ثم يتحدث عن الأديان والخلاف بينها، وسبب هذا الخلاف، قائلاً :

ولكل قوم شرعة مسلوكة والأتبياء أدلة على الأقوام
فمحمد من بعد عيسى في الهدى من بعد موسى هم نوو الأرحام
لكن محترفي الديانة حرفوا أحكامها ومسيطري الحكام

فمحمد وعيسى وموسى يرجعون إلى مصدر واحد في الهدى. وهذا كلام واضح لا يقوله الشاعر إلا ليؤسس عليه هجومه على محرفي الأديان والمتسببين في الشقاق بين الأديان السماوية الثلاثة الكبرى. وفي البيت الأخير جمال وصدق غير قليل، ولذلك يريد "محمد العيد" الغيور على الإسلام، والمؤمن بانتصاره في آخر الأمر، والذي لا يرى بأياً في استعمال العقل والعلم في نصرته ضد خصومه وأعدائه، أن يحمل المسلم الجديد مسؤولية الدفاع عن الإسلام في باريس، وفي بلاد الأعاجم بكل ما أوتي من قوة:²

"بنوا" أمامك واجب فانهض به متقلدا ذكراك كالصمصام
إن الحقيقة أصبحت مهضومة في الغرب تحت مواطئ الأقدام

1 - محمد مصايف: المرجع السابق. ص: 26-27

2 - محمد مصايف: المرجع نفسه. ص: 28

جلجل بها كالرعد غير مججم وازأر بها غضبان كالضرغام
واغز العقول بعدة علمية بالحق ظاهرة و بالإقدام
كم معقل للوهم والتضليل لم تنسفه غير قنابل الأقدام

فلا يزيد الشاعر في هذه الأبيات على أن يفهم "بنوا" بأن اعتناقه للإسلام لا يكمل ولا يتركز إلا إذا عد الدفاع عنه بكل إقدام واجبا عليه يقوم بالقلم واللسان... وليس هناك من وسيلة للقضاء على الأوهام والأباطيل غير مقارعة الحجة بالحجة، واستعمال العقل والقنابل من الشاعر في هذا الموضوع يدل على خبرة عظيمة في القول، وأجمل من كل ما سلف أن "محمد العيد" يرى إسلام "علي بن سليمان" حجة على المسلمين الساخطين على تقاليدهم، والمغرورين بلمعان الحضارة الغربية: ¹

إسلام "بنوا" حجة قامت على أسرى العقول مضلي الأفهام
المسلمين الساخرين بدينهم تبعاً لمن كفروا من الأعجام
الساخطين هوى على شهواتهم صرعى كمن عكفوا على الأصنام
لو أنهم فحصوا الأدلة لاهتدوا في بحثهم لفواصل الأحكام

لقد أجاد الشاعر في التعبير عن حالة هذه الطائفة الواهمة من المسلمين، وعرف الداء الذي نخر ولا زال ينخر في عظامهم، وهو أنهم أسرى العقول لا يحكمونها فيما حولهم من الآيات الإلهية، وأنهم لم يقعوا فيما وقعوا فيه من جحود وسخرية من دينهم إلا اقتفاء للكفار من الأعاجم. وقد بلغ بهم تعطيل عقولهم والافتداء بغيرهم من الكفار أن انكبوا صرعى على شهواتهم كمن يعكف على عبادة الأصنام
يختم الشاعر قصيدته بأبيات ثلاثة تظهر فيها مبالغته في هذا الغيمان حتى أبطل أو كاد إرادة الإنسان في هذه الحياة :

ما أنت يا إنسان إلا هادف لمدالك طبق سوابق الأقسام
بيد الإله زمام أمرك كله فإذا أصبت هداك فهو الرامي
من أدركته من الإله عناية خلعت عليه مطارف الأنعام

¹ - محمد مصاييف: المرجع السابق. ص: 28-29

فالشاعر يقرر في هذه الأبيات عجز الإنسان عن تغيير مصيره في هذا العالم ، وهو ما يخالف به قوله في أول القصيدة :¹

"بنوا" أبلت في حرب الهوى حسنا وما باليت باللوام

3/التأويل الصوفي لقصيدة "أين ليلاي":

مال (ليلاي) لن تصل مهجات فديناها

وقلوبا علقنها وعونا بكيتها

ايه يا عيني اذرفي لن تري بعد عينها

كم تساءلتُ سالكا أنهجا ما حويتها

لم يجبني سوى الصدى أين (ليلاي) أينها ؟²

نبدأ من العنوان المتمركز حول نقطة واحدة وهي غياب ليلي واشتعال نار الشوق بقلب الشاعر فهام بذكرها وطار عقله متسائلا "أين ليلاي" وعند تعريفهم للشوق قال بعضهم "هيمن القلب عند ذكر المحبوب ، وقال آخر الشوق نار الله تعالى أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات" ، فالشاعر خرج يسأل عن ليلي إذ غلبه الشوق فلم يعد يطيق صبرا على بعدها فهو "تبرم ببقائه شوقا إلى لقاء محبوبه" فحملة ثقيل تنوء عن حملة الجبال ، فقد فاق حبه حب كل العاشقين ، وذاك دأب المتصوفة الفانين في حب الجمال المطلق ، وهذا ما عبر عنه أبو حامد الغزالي ، فقال :

ومن عجب حمل الجبال هوى به طلعت وعن حملي قديما تأبت
فمن قيس ليلي العامرية في الهوى ومن قيس لبنى أو كثير عزة
إذا تليت آيات ذكري فقابل الـ مجنون ذكري بالسجود لحرمتي
وأوجب كل منهم الوقف عندها وسلم أن لا قصة مثل قصتي³

¹ - محمد مصايف :المرجع السابق .ص: 29-30

² - محمد العيد آل خليفة :الديوان ، الشركة الوطنية ، الجزائر ، 1967.ص:41

³-أبو حامد محمد بن محمد الغزالي :معارج القدس في مدارج معرفة النفس ،شركة الشهاب ،الجزائر ، د ط ،دون تاريخ

فقصيدة "محمد العيد" قصيدة تدل على حب ملك شغاف قلبه فما استطاع كتمه وراح يسأل عن ليله فظهر اغترابه، إذ أنه يعيش الحيرة والتساؤل، وعدم الاستقرار فهو الشاعر الإصلاحى، وهو الشاعر المتصوف يجمع بين طريقتين، يعطي صوت المصلح ويكتم أنفاس المتصوف، ولكن سرعان ما تخرج آهاته باحثة عن حقيقته.

يطالعا الشاعر في أول بيت من النص الشعري بسؤاله عن مكان ليلي، وهو استفهام حقيقي إذ أن "محمد العيد" يجهل فعلا مكانها، وهذا يبدو من تكرار أداة الاستفهام (أين) المقرونة بضمير الغائب (الهاء) وجهله ناتج عن البين فهو قد حيل بينه وبينها:

أين ليلاي أينها¹ حيل بيني وبينها¹

فإلى هجرت الشاعر وأشد ما يخوف به المحب الهجر" الذي هو كناية عن سدل الحجاب على عين القلب" وهو لا يريد للحجاب أن يسدل بينه وبين محبوبه لذلك يقوم بالبحث في أعماق النفس عن العوائق والحواجز التي تحول بينه وبين الوصول إلى محبوبه، فيتخذ من السفر مطية للبحث، والسفر هنا هو "السير إلى الله من منازل النفس بإزالة التعشق من المظاهر والأغيار إلى أن يصل العبد إلى الأفق المبين، وهو نهاية مقام القلب".

حين ذاك ينتقل من الغياب إلى الحضور، فمن اغترابه الفردي إلى الاغتراب الجماعي ليتساءل عن قضاء دينها للآخرين "هل قضت دين من قضى؟" وهنا تستبد الحيرة بالشاعر، والحيرة "هي بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكيرهم تحجبهم عن التأمل والفكر"، فالشاعر ليس الوحيد من يعاني من حب ليلي، ولكنهم كثير وهذا ما يجعلنا نستبعد أن تكون ليلي امرأة عشقها الشاعر، وإنما هي رمز لحب أكبر.²

إن القرينة الصوفية المتمثلة في كثرة المحبين، وطلب الشاعر أن يكون الوصل لكل مهجة ذابت في عشقها، وكل قلب بهواها وكل عين بكت على بعدها، ولكل من قام بالسير والسلوك في نهجها والذي لا يكون إلا "بتهديب الأخلاق والأعمال والمعارف، وفي ذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن، والعبد في جميع ذلك مشغولا عن ربه، إلا أنه مشتغل بتصفية باطنه ليستعد للوصول". فالانشغال بغير الله هو بعد يستدعي البحث عن سبل

1 - محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص: 41

2 - سنوساوي عمارية: الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري، ماجيستير، 2012-2013، ص: 158-159

الوصال و الذي هو "الرؤية والمشاهدة بسر القلب في الدنيا وبعين الرأس في الآخرة" ،لذلك يدعو عينه لذرف الدموع لأن قلبه لا يزال مشغولا ولم يفز بعد بالرؤية والمشاهدة:¹

روعتي ببينها لا رعى الله بينها
فتعلقت بالطيـو ف اللواتي حكينها
وتعلت بالمنى فتبينت مئنها²

ف"محمد العيد" عندما تعلق بالطيوف فقد عكس صورة المحبوب على مرآة خياله ،فالطيوف هنا "كالمرآة العاكسة لوجه غير مرئي مباشرة" ،والمرآة لها خصوصيتها عند المتصوفة فهي تبرز كرمز "لافتتان الصوفي بالوجود وحنينه إلى وصوله في شكل حس اغترابي نوهي نوع من الغيبوبة الحلمية التي يعاني فيها كل أشكال الغياب"³ فهو يعيش مع ما هو غير مرئي بالنسبة للآخر ،ويغيب عن هذا العالم ليعيش مع طيف المحبوب ،وهنا يستدعي "محمد العيد" الطيوف ويعلل النفس بالمنى في الوصال وذلك لنزع شيء من الاغتراب الروحي الذي يعانيه ،فليلى لم تصل المهجات التي فدينها ولم تشفق على العيون التي بكينها ،فالمحب يذوق حلاوة الاتصال بالمحبوب فيسر قلبه ويهدأ باله ،كما يبتلئ بالفراق والهجران فيجري دمه ويزيد شوقه وتلك آثار المحبة التي تنتقل بصاحبها بين "الوجد ،والذوق ،والحلاوة ،والأنس ،والاتصال بالمحبوب والقرب منه ،والانفصال عنه والبعد منه ،والصد والهجران ،والفرح والسرور ،والبكاء والحزن ،وغير ذلك من أحكامها ولوازمها" والشاعر يأخذه الشوق ويتعبه الصد والهجران ،وتستبد به الحيرة فيقول متسائلا :

ما ل"ليلاي" لم تصل مهجات فدينها
وقلوبا علقنها وعيونا بكينها⁴

1 - سنوساوي عمارية :المرجع السابق.ص:159

2- محمد العيد آل خليفة :الديوان.ص:41

3 - أمينة بلعلی :تحليل الخطاب الصوفي ،في ضوء المناهج النقدية المعاصرة ،منشورات الاختلاف ،ط:1

،2002.ص:71

4 - محمد العيد آل خليفة :الديوان.ص:41

نلاحظ كيف ينسب الشاعر "محمد العيد" ليلي لنفسه "ليلاي" لأنها حبه الخاص به لوحده، وهي أيضا حب يسري في كل الكائنات ولكن لكل مفهومه الخاص لحبه لأن "كونية الجمال الإلهي انعكست على مفهوم الحب ذاته فهو ليس انفعالا عاطفيا أو شبقيا، وإنما حركة وجودية تسري في كل الكائنات، وترتبط جميع الموجودات"¹، والشاعر يتوق إلى الوصال الذي يملأ القلب أمنا وأمانا، ويدعو عينه إلى ذرف الدموع لغسل الخطايا والذنوب لتعبد له طريق السير والسلوك لأنه لن يراها فهي لا تحويها أرض ولا سماء، فهي أكبر من كل هذا وذلك:²

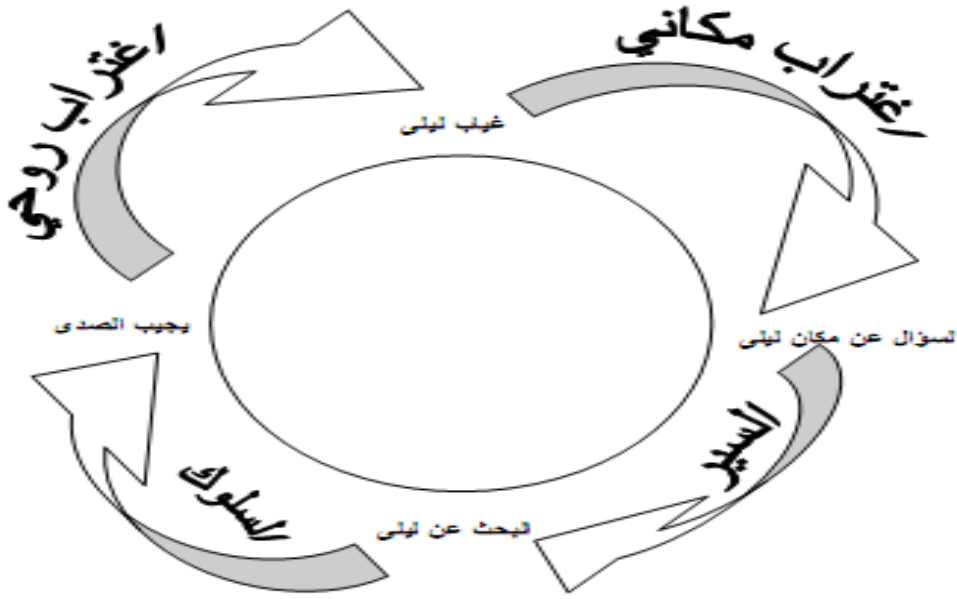
ليه يا عيني اذرفي	لن ترى بعد عينها
السموات والأرا	ضي جميعا نفينها
كم تساءلت سالكا	أنهجا ما حوينها
لم يجبني سوى الصدى	أين (ليلاي) أينها؟ ³

ويستمر الشاعر في بحثه عن ليلي التي سأل عنها كثيرا من السالكين ولكن لم يجبه أحد لأن السر لا يكشف، فيأخذه الهيمان فينادي بأعلى صوته "أين ليلاي؟ فلا يرد عليه سوى الصدى فاغتراب الشاعر عبر عنه بالاستقرار الذي يعيشه في الحياة الدنيا وينتهي قصيدته بالسؤال الذي بدأها به "أين ليلاي أينها؟ فهذا النص "يقوم بناؤه على الدورانية يفضي بنا آخر بيت فيه إلى نقطة البداية، أي إلى أول بيت النص" القصيدة تنتهي عند نقطة البداية فهي على شكل دائرة نوضحها في الشكل التالي:

¹ - أمينة بلعلی: تحليل الخطاب الصوفي. ص: 71

² - سنوساوي عمارية: الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري. ص: 160-161

³ - محمد العيد آل خليفة: الديوان. ص: 41-42



الدائرة هنا تعبر عن الحضرة إذ أن الكل يدور حول المركز، ومحركهم في ذلك هو الحب "فلولا الحب ما دارت الأفلاك، ولا تحركت الكواكب النيرات نولا هبت الرياح المسخرات، ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات"¹ والشاعر حركه الحب فانتقل من حال إلى حال، ودار باحثا عنه ليعود في النهاية إلى نقطة انطلاقه، فالحركة الطبيعية أصلها السكون، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي، فهو يتحرك ليعود إليه. فالشاعر في هذه القصيدة يبدأ بالسؤال ليعود إليه، وهذا لا يعني أنه لم يصل إلى مبتغاه، بل على العكس من ذلك لأن "السالك يسلك على المقامات، وينكشف له في كل مقام عن نور من النور الذاتي، وذلك بحسب استعداده فيعرف بذلك النور ربه وخالقه"، وهو قد سلك كل الدروب باحثا عن ليلاه التي تمثل الجمال المطلق ليصل في النهاية إلى حقيقة وهي أن عينه لن ترى عينها، فقد أدرك أنه لا يدرك المحبة، وهذا يعني أنه وصل إلى مقام "يتحقق فيه أن الذات شيء من خاصيته، إنه لا يعرف، فيقول عند ذلك: "العجز عن درك الإدراك إدراك"، يعني أنه قد أدرك أن الذات لا تعرف، وهذا أعلى المقامات " والشاعر ينتهي عند الحيرة التي بدأ منها في هذا المقام الذي وصل إليه" يقول السالك: "رب زدني فيك تحيرا"، يعني الحيرة المقبولة التي تتكرر التجليات الأسمائية والصفاتية، لا الحيرة المذمومة الحاصلة في أول السلوك

¹ - سنوساوي عمارية: الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري. ص: 161

فالحيرة التي خرج منها بيقين ليست هي نفسها التي بدأ منها رحلة البحث، فيقينه بحبه زاد حتى وإن زادت حيرته عن ذي قبل ويبقى امله في العودة بنقاء إلى منزله الأول هو مبتغاه.¹

¹ - سنوساوي عمارية : المرجع السابق. ص: 162-163

الخاتمة:

نستخلص في الأخير جملة من النتائج أهمها :

-إن مفهوم الشعر الديني هو كل شعر اتضحت فيه العاطفة الدينية الصادقة ووسمته المعاني القرآنية ،وظهر عليه تصور الكون والحياة من خلال الإسلام ومثله العليا ،وقد تعددت أغراضه وتياراته ،وبذلك أضاف الشعراء رصيذا فكريا هائلا ،يضاف إلى ما سجله الشعر الجزائري في اتجاهاته الأخرى من ثروة أدبية ضخمة ،واحتمل الاتجاه الديني مكانا بارزا في صفحة الشعر الجزائري.

-إن الشعر الديني الجزائري الحديث قد عبر عن وجدان أصحابه وعن العقيدة الروحية للمجتمع ،فبالدين استطاع الفرد الجزائري أن يحقق ذاته واستطاع الشعب أن يقف أمام السيطرة الاستعمارية التي حاولت القضاء على شخصيتها العربية الإسلامية ،وأن الوعي بالدين واثره في الناس قد جنب الشعب المسخ والتغريب وأذكى في ضميره حب الحرية التي هي مبدأ من مبادئ الدين الإسلامي .

-كان من بين أهداف الشاعر التخلص من أثر المادة في الإنسان ،وكذلك التخلص من بوتقة الجهل والتخلف والاستعمار وهذا كان أساس ثورة شعراء الإصلاح حيث نادوا بالرجوع إلى الدين بوصفه ركيزة من ركائز الأمة ،وعاملا مؤثرا في الحياة .

- إن الغزو الاستعماري قد أضاف ركودا إلى الحياة الثقافية والأدبية ،وحاول فرض سيطرته الفكرية والسياسية والدينية ،ولا شك أن المقاومة اتخذت أشكالا مختلفة من الكفاح المسلح إلى التعبير بالشعر إلى التشبث بالدين ،وهذا الأخير لعب دورا كبيرا في السياسة والأدب ،لأنه كان المحرك الأساسي للكفاح .فالشاعر دائما كان يعبر عن رؤيته لقضايا عصره محاربا سياسة الاستعمار التي تعمل على القضاء على المقومات الشخصية للبلاد وأهمها الدين واللغة ،فقد اتجه الشعر إلى الدين بسبب ذلك الاضطهاد الذي تعرض له الإسلام في الجزائر.

-إن أسلوب الشعر الديني أسلوب تقليدي استقى صورته ومعانيه من التراث ،وصاغه الشاعر بحيث يلائم هدفه ،وأن الصور المبتكرة فيه قليلة .

-إن ضعف اللغة العربية وما عانت منه بسبب الجمود والاستعمار قد انعكس في قصائد الشعراء، وهذا يبدو في تلك الصيغ المحفوظة الجاهزة، أو في تلك التراكيب الضعيفة .

-إن الشعر الصوفي عني بقضايا تتصل بالدين، ولكنها لا تمس جوهره وحقيقته وبالتالي كان مضمون الشعر الصوفي تقليديا، بينما الشعر الإصلاحى تظهر فيه خطوة متقدمة من حيث المضمون فقد اتسم بالنقد والهجوم على الواقع وربط بين الإنسان والأرض والقومية والدين، وكانت وظيفة الشعر سياسية واجتماعية وأخلاقية، وهذه كلها مضامين جديدة في الشعر الجزائري الحديث

-لا حظنا بأنّ الشّاعر "محمد العيد" قد ترعرع في بيئة دينية من أسرة متدينة، ولذا كان من الطبيعي أن يرتسم هذا في شعره إما بتطرقه لموضوعات دينية محضة أو تهدف لغرض ديني، كما رأينا غيرته على الإسلام واعتزازه بلغته وقوميته، ثم إنه من جراء دخول المستعمر العاشم كان لابد من رفع القلم مع رفع الهمم وذلك من خلال مساهمته في الدعوة الإصلاحية.

Handwritten text in a stylized, cursive script, possibly representing a name or a signature. The text is written in black ink on a white background and is oriented horizontally.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1/ إبراهيم علي أبو خشب: تاريخ الأدب العربي في الأندلس، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970
- 2/ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، شركة الشهاب، الجزائر، د ط، دون تاريخ
- 3/ أبو العتاهية: الديوان، دار بيروت، 1964
- 4/ أبو القاسم سعد الله: محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري في العصر الحديث، دار المعارف، مصر، ط: 2
- 5/ أحمد دوغان، شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1989
- 6/ أسعد السامرائي: التصوف، منشؤه ومصطلحاته، دار النفائس، بيروت، 1978
- 7/ أمينة بلعلی: تحليل الخطاب الصوفي، في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، منشورات الاختلاف، ط: 1، 2002
- 8/ بدوي طبانة: النقد الأدبي عند اليونان، المطبعة الفنية الحديثة، ط: 2
- 9/ ابن الرومي: الديوان، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب، ط: 1-1974. ج 5
- 10/ ابن خلدون: المقدمة
- 11/ التوتنجي محمد: الاتجاهات الشعرية في بلاد الشام في العصر العثماني، منشورات اتحاد الكتاب العربي، 1993
- 12/ حسن فتح الباب: محمد العيد آل خليفة شاعر الجزائر، الدار المصرية اللبنانية، ط: 1، 2002
- 13/ سامي الدهان: المديح، دار المعارف، القاهرة، ط: 2-1968
- 14/ سعد الدين صالح: احذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، مكتبة رحاب، الجزائر
- 15/ سنوساوي عمارية: الاغتراب في الشعر الصوفي الجزائري، ماجستير، 2012-2013

- 16/ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، ط:3
- 17/ صالح الخرفي: محمد العيد آل خليفة، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007
- 18/ طاهر يونابي: التصوف في الجزائر
- 19/ عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة، بيروت، 1976
- 20/ عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، دار الكتاب العربي، الجزائر، ط:1، 2011، ج1
- 21/ عمر بن قينة: في الأدب الجزائري الحديث، تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط: 2، 2009
- 22/ محمد بن سمينة: شخصيات لها تاريخ، محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية-الجزائر، 1989
- 23/ محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائر، طبع بمطبعة دار هومة، ج 1.
- 24/ محمد العيد آل خليفة: الديوان، الشركة الوطنية، الجزائر، 1967
- 25/ محمد الصغير بناني: فك الإسار في شعر الهزار، تحليل بلاغي وأسلوبى لمقطوعة يا هزاري لمحمد العيد، مركز البحث في الإعلام العلمي والتقني، بن عكنون-الجزائر، 1996
- 26/ محمد محمود سالم: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، دار الفكر، دمشق، ط:1، 1996
- 27/ محمد مصايف: فصول في النقد الأدبي الحديث، الشركة الوطنية، رغاية-الجزائر، ط:2، 1981
- 28/ المعري: بحث التلبية في رسالة الغفران، تحقيق: عائشة عبد الرحمان، دار المعارف، مصر، ط:5
- 29/ مفدي زكرياء: اللهب المقدس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

30/الوناس شعباني : تطور الشعر الجزائري منذ 1945 حتى سنة 1980 ،ديوان
المطبوعات الجامعية

31/ ناصر الدين الأسد :القيان والغناء في العصر الجاهلي،ط:2.

تاریخ

الفهرس:

أ-ب.....	مقدمة :
04.....	مدخل: الشعر الديني في الآداب الإنسانية.....
12.....	الفصل الأول: الشعر الديني في الأدب الجزائري.....
13.....	1. مفهوم الشعر الديني وعوامل ظهوره في الأدب الجزائري.....
13	1/ مفهوم الشعر الديني.....
14.....	2/العوامل المساعدة على ظهوره في الجزائر.....
20.....	II. تيارات الشعر الديني الجزائري.....
20.....	1/ الشعر الديني الصوفي.....
20.....	1-1/ المدائح والتوسلات.....
41.....	2/ الشعر الإصلاحية.....
53.....	الفصل الثاني : نماذج مخصوصة من شعر "محمد العيد آل خليفة".....
	1. الأصول البيئية والاجتماعية والثقافية للشاعر
54.....	"محمد العيد آل خليفة".....
54.....	1/ولادته ونشأته.....
55.....	2/ثقافته.....
56.....	3/وفاته.....
57.....	II- من آراء وتجارب "محمد العيد آل خليفة".....
57.....	1/العقيدة في شعره.....
59.....	2/الإسلام واللغة والقومية في شعر "محمد العيد آل خليفة".....
61.....	3/نظرته إلى الدعوة الإصلاحية.....
64.....	III- نماذج من شعر "محمد العيد آل خليفة".....
64.....	1/قصيدة "هيهات يغزى المسلمون".....
57	2/قصيدة "تحية المسلم الجديد بنوا علي"
71.....	3/ التأويل الصوفي لقصيدة "أين ليلاي".....

77.....خاتمة

قائمة المصادر والمراجع

الفهرس